

لينين



جورج لوكاش

من كتاب : في الفكر اللينيني
ترجمة : جورج طرابيشي
دار الحقيقة . بيروت

ترجمة لكتاب:

LENINE
G. LUKACS
Editions E.D.I – 1965

إعداد إلكتروني:

جريدة المناضل-ة

جريدة عمالية، نسوية، شبيبية، أممية
<http://www.al-mounadhil-a.info>

تقديم

يحتفل العالم هذا العام بالذكرى المئوية الأولى لميلاد فلاديمير إيليتيش أوليانوف، الذي خلده التاريخ باسم لينين، نسبة إلى نهر اللينا في سيبيريا، التي نفي إليها لمدة ثلاث سنوات في زهرة عمره.

وهناك بلا شك أكثر من طريقة لتكريم ذكرى لينين. وأسوأ تلك الطرق على الإطلاق هي تلك التي حذرنا منها لينين بنفسه. فقد كتب في «الدولة والثورة» يحتاج على تحنيط الثوريين: «تبذل المحاولات بعد مماتهم لتحويلهم إلى أيقونات لا تنفع ولا تضر، لتطويعهم إن صح التعبير، لإحاطة اسمهم بهالة معينة بهدف تعزية الطبقات المضطهدة وتضليلها. وعن طريق مثل هذا العمل يفرغ مذهبهم الثوري من محتواه، ويذل وتتلهم حدته الثورية».

وقد نحتفل اليوم بذكرى ميلاد لينين، ونحتفل غداً بذكرى وفاته. ولكن هذا لا يعني أن لينين هو اليوم بالنسبة إلينا والى ملايين البشر مجرد ذكرى. فلينين حي بيننا، وفي التاريخ. وتكريمه لا يكون عن طريق تحنيطه، لأن التحنيط هو، في أحسن الأحوال، تكريم لجثته. والحال أن لينين الذي نحن بحاجة إليه هو لينين الحي، لا لينين الميت.

إن ستالين هو الذي أسس طقوس عبادة لينين، وبتعبير لينيني: طقوس عبادة أيقونة لينين. ذلك أن الردة الستالينية، التي هي ردة على اللينينية، كانت بحاجة إلى إحاطة جثة لينين بكل ضروب التكريم والتطويع لأنها كانت بحاجة قبل كل شيء إلى تحويل لينين إلى مجرد جثة: جثة تعبد وتقديس ولكنها تظل جثة، أي بلا حول ولا قوة، وبلا افتتاح على المستقبل.

وفي أيامنا هذه التي بدأت تعود فيها إلى الستالينية أبعادها الحقيقية كجثة تنقل بوطأتها على التاريخ الحي للاشتراكية، يجدر بنا أن نتذكر أن هذه الجثة لم توارِ بعد التراب نهائياً، وأن روائح تفسخها ما تزال تلوث الأجواء، وأن تركتها الثقيلة لم تصف تماماً، وأن ورثتها - والطامحين في أن يكونوا ورثتها - ما زالوا على قيد الحياة.

وطقوس عبادة لينين هي أحد الأشكال التي ما زالت الجثة الستالينية تنفتح عن طريقها سموها في الجسد الحي للاشتراكية. وإذا كنا نحتفل اليوم بذكرى ميلاد لينين، فإن هذه قد تكون مناسبة إضافية لتحرير اللينينية من إسار الأيقونة التي حبسَت فيها. ولا نظن أننا ننتهي بذلك القدسيات: فاللينينية يجب أن تبقى، وكما كانت فعلاً، نفياً حياً لكل وثنية.

وتحطيم أيقونة لينين، حتى تعود للّينينية كل حيوتها، قد يتطلب منا من الجرأة اليوم أكثر مما تطلب قبل حوالي نصف قرن من الزمن عندما ارتفعت أصوات اللينينيين، غداة وفاة لينين، للاحتجاج على مشروع تحنيطه الستاليني. ونحن نخص بالذكر ههنا صوت شاعر ثورة أكتوبر الأكبر، ماياكوفסקי، الذي كتب في افتتاحية العدد الأول من مجلته «ليف» الصادرة غداة وفاة لينين، تحت عنوان «لينين ليس للبيع»، مندداً بالمحاولات الأولى لتطويب قائد ثورة أكتوبر:

«رأينا في صحفنا الإعلان التالي:

تماثيل نصفية

لـ فـ إـ لـ لـ يـ نـ يـ نـ

من الجص، من البرونز، من الرخام،
من الغرانيت، بالحجم الطبيعي أو

بضعفِ الحجم الطبيعي، بالنسبة إلى
الأصل، مع إذنٍ بنسخه وتوزيعه
صادر عن لجنة تخليد ذكرى

ف. إ. لينين

من صنع النحات

س. د. ميركولوف

عرض

من منشورات الدولة
على منظمات الحزب والنقابات
والإدارات العامة والتعاونيات الخ.

كل نسخة

مأذون بها بالشكل القانوني.

الزيارات وتلقي الطلبات

في فرع المنشورات التجارية

4 شارع رويد ستفسكا، موسكو

ترسل النماذج المصورة مجاناً

بمجرد الطلب.

النسخ والتقليد

يعاقب عليهما القانون.

إننا نحتاج.

إننا نوافق عمال سكك حديد ريازان الذين اقترحوا على مصمم الديكور أن يصمم
قاعة لينين في ناديهم بدون تمثال نصفي وبدون صورة للينين قائلين: «لا نريد
أيقونات».

إننا نلح.

لا يجعلوا من لينين خاتماً.

لا طبعوا صورته على الإعلانات، على الأقمصة المشمعة، على الصحف، على
الأقداح، على مشارب السكاكير.
لا تصبوه في البرونز.

لا تنزعوا عنه مشيته ووجهه الإنساني الحي الذي عرف كيف يحتفظ به وهو يقود
مسيرة التاريخ.

إن لينين ما يزال معاصرنا.

إنه بين الأحياء.

إننا بحاجة إلى لينين حيا لا إلى لينين ميتاً.
إذن.

ادرسو لينين، ولا تطويوه.

لا تخلقوا طقوس عبادة حول اسم رجل ناضل طوال حياته ضد جميع أنواع العبادات.

لا تناجروا بأشياء هذه العبادة.
إن لينين ليس للبيع».

فلندرس لينين !

إن صيحة ماياكوفסקי المفجوعة هذه تذكرنا بأنه ليس هناك من طريقة أخرى
اليوم لتكريم ذكرى لينين.

ولعلنا نسهم بقسط متواضع في إحياء تلك الذكرى، إذ نقدم للقارئ العربي هذه
النصوص الثلاثة التي يحاول كل منها أن يدرس لينين من منظور محدد.
نص جورج لوكاشك الذي صدر في فيينا بعد شهر واحد من وفاة لينين.

ونص نيقولاى بوخارين الذى هو فى أساسه خطاب ألقى، بعد شهر من وفاة لينين
أيضا، فى الأكاديمية الشيوعية بموسكو.

ونص روجيه غارودى الصادر في باريس في عام 1968.
نصوص أربعة تحاول أن تعيد بناء فكر لينين.

الأول يعيد بناءه انطلاقا من الممارسة اللينينية العملية.
والثانى انطلاقا من الممارسة اللينينية النظرية.
والثالث والرابع من الممارسة اللينينية الفلسفية.

وقد تتدخل وتتشابك هنا وهناك النصوص الثلاثة. وليس في هذا من عجب.
فاللينينية واحدة. والتمييز بين مختلف لحظاتها ليس إلا ضرورة منطقية عارضة يفرضها
التحليل.

وأعظم طموحنا أن تكون هذه النصوص الثلاثة صُواة على طريق إعادة اكتشاف
البرنامج الماركسي والمضمون الثوري والروح الحية للنظرية والممارسة اللينينية في
إطار الثورة العربية.

جورج طرابيشى

1 – آنية الثورة

إن المادية التاريخية هي نظرية الثورة البروليتاريا. وإنها كذلك لأن ماهيتها هي الخلاصة المفهومية لتلك الكينونة الاجتماعية التي تنتج البروليتاريا وتحدد كل وجود البروليتاريا. إنها كذلك لأن البروليتاريا المناضلة في سبيل تحررها تجد فيها وعيًا صافيًا لذاتها. ومن هنا فإن عظمة المفكر البروليتاري، عظمة مثل المادية التاريخية تقاس بعمق رؤيته لهذه المشكلات واتساع أفهامها وهي تقاس أيضًا بالحدة والصحة اللتين يكون قادرًا بهما على أن يستشف خلف ظاهرات المجتمع البورجوازي ميول الثورة البروليتاريا التي ترتفع في تلك الظاهرات وبواسطتها إلى الوجود الفعلي والوعي الواضح.

ولينين، تبعاً لهذه المقايس، أعظم مفكرو أنتجه الحركة العاملة الثورية منذ ماركس. ويدعوه أن الانهاريين، الذين ما عاد في وسعهم أن ينكروا على الملايين من الناس أهميته أو أن يكتفوا بالثرثرة الفارغة حوله، يقولون أن لينين كان رجلاً سياسياً روسيًا كبيراً، ولكنه كان يعتقد، حتى يكون زعيماً للبروليتاريا العالمية، إلى حسن التمييز الذي كان سببه له أن يدرك الفارق بين روسيا والبلدان الرأسمالية المتقدمة، ويضيفون بأنه عمم... وهذا تكمن على حد زعمهم حدوده على الصعيد التاريخي... مشكلات الواقع الروسي وحلوله دون أي نقد لتطبيقاتها على العالم قاطبة.

إنهم ينسون أن المأخذ نفسه قد أخذ على ماركس في حينه. فقد قيل آنذاك أن ماركس استخلص دونما نقد من ملاحظاته على الحياة الاقتصادية الإنكليزية والمعامل الإنكليزية قوانين عامة لتطور المجتمع، وأن تلك الملاحظات الصحيحة كل الصحة في حد ذاتها تصبح بالضرورة خاطئة عندما تتشوه وتنزل منزلة القوانين العامة. وقد انتفت اليوم الحاجة إلى دحض هذا الخطأ في تفاصيله وإلى تبيان حقيقة أن ماركس لم «يعمم» بأي صورة من الصور تجارب منعزلة ومحدودة زماناً ومكاناً. فماركس قد استكشف على العكس، تبعاً لمنهج عمل عبارة التاريخ والسياسة الحقيقيين، ومن وجهة نظر تاريخية ونظرية على حد سواء، عالم الرأسمالية العامة الأكبر من خلال العالم الأصغر الذي هو المصنع الإنكليزي ومسلماته وشروطه ونتائجها الاجتماعية، وكذلك من خلال الميول التاريخية التي أفضت إلى ولادته وتلك التي تجعل وجوده أمراً غير مؤكد على الدوام.

وهذا بالضبط ما يميز العبرقي على المتفقه في العلوم والسياسة. فهو الأخير لا يستطيع أن يفهم ويميز مراحل الصيرورة الاجتماعية إلا من خلال معطياتها المباشرة وانزعالها. وعندما يريد الارتفاع إلى استنتاجات عامة، لا يفعل من شيء في الواقع إلا أن يفسر بصورة مجردة حقاً بعض الجوانب من ظاهرة محدودة في الزمان والمكان وينزلها منزلة «القوانين العامة» ويطبقها على هذا الأساس. وبالمقابل فإن العبرقي الذي يعي بكل وضوح وصفاء الميل العام الحقيقي لعصر من العصور، الميل الذي ما يزال تأثيره حياً يتبين، يرى حركة هذا الميل وراء جملة أحداث عصره. ومن هنا فإنه يعالج أيضاً المشكلات الأساسية الخامسة الممتدة على المرحلة كلها، حتى وإن كان هو نفسه لا ينوي الكلام إلا عن المسائل الآنية.

إننا نعلم اليوم أن عظمة ماركس إنما تكمن في هنا. فهو قد استوعب، انطلاقاً من بنية المصنع الإنكليزي، جميع الميول الحاسمة للرأسمالية الحديثة وفسرها. ولقد كانت كلية التطور الرأسمالي ماثلة على الدوام أمام ناظريه. ولهذا كان قادرًا على أن يستشف في كل ظاهرة من ظاهرات هذا التطور كليته، وأن يرى في بنية اتجاه تقدمه.

ولكن قليلين من الناس يعلمون اليوم أن لينين أنجز في عصرنا ما أنجزه ماركس بالنسبة إلى تطور الرأسمالية اليوم. فهو قد رأى على الدوام مشكلات العصر بأكملها في مشكلات تطور روسيا الحديثة، بدءاً من مشكلة ولادة الرأسمالية في إطار الحكم المطلق ونصف الإقطاعي إلى مشكلات بناء الاشتراكية، في بلد زراعي متخلّف: **الدخول في المرحلة الأخيرة من الرأسمالية وإمكانيات توجيه التصادم الحاسم الذي ياتي محتماً بين البورجوازية والبروليتاريا لصالح البروليتاريا ولخلاص الإنسانية.**

إن لينين، شأنه شأن ماركس، لم يعمم فقط تجارب محلية خاصة بروسيا، ومحدودة في الزمان والمكان. ولكنه أدرك وميّز، بنفذ بصيرة وعيقرمية، مشكلة عصرنا الأساسية في المكان والزمان اللذين بزرت فيهما نتائجها الأولى، وأعني بتلك المشكلة اقتراب الثورة. وإنما من خلال هذا المنظور، منظور آنية الثورة، فهم جميع المشكلات الروسية والأممية على حد سواء وجعلوها مفهومية.

آنية الثورة، تلك هي فكرة لينين الأساسية والنقطة الحاسمة التي تربطه بماركس. ذلك أن المادية التاريخية بوصفها تعبرنا نظرياً عن النضال في سبيل تحرر البروليتاريا ما كان من الممكن تصوّرها وصياغتها نظرياً إلا في اللحظة التاريخية التي أصبحت فيها مطروحة على جدول أعمال التاريخ من خلال آنيته العملية، أي في اللحظة التي ما عاد يظهر فيها في بؤس البروليتاريا البؤس وحده كما قال ماركس، بل على العكس الجانبي الثوري «الذي سيطّح بالمجتمع القديم». ويدعوه أن إدراك آنية الثورة البروليتاريا كان بحاجة آنذاك إلى رؤية العبرقي الجريئة. ذلك أن الثورة البروليتاريا لا تصبح منظورة بالنسبة إلى عامة الناس إلا بعد أن تكون الجماهير العمالية قد شرعت تناضل حول المتأريخين. ومما يزيد في عمي أولئك الأفراد المتوسطين أنهم تلقوا تحصيلاً

ماركسيًا مبتدلاً. ذلك أن أساس المجتمع البورجوازي ثابتة راسخة في نظر «الماركسي» المبتدل إلى درجة لا يتنمّى معها، حتى عندما تسمع أذناته قصصه ذلك المجتمع المبشرة بانهياره، إلا عودته إلى حاليه «السوية». فهو لا يرى في أزماته إلا أعراضًا عارضة، ويعتبر النضال حتى في أوقات الأزمات تمدّلاً لا معقولاً من قبل أناس غير جديين ضد الرأسمالية التي لا سبيل إلى قهرها بالرغم من كل شيء. وعلى هذا فإن مقاتلي المتأسسين يبدون له أناساً تائهيـن ضالـين، والثورة المسحـوقة تبدو له «غلطة». وفضلاً عن ذلك يعتبر «الماركسيـون» المـبـتـدـلـون بـنـاءـ الـاشـتـراكـيـة في ثـورـةـ مـظـفـرـةـ مجرـمـينـ أوـ كـالـمـجـرـمـينـ، لأنـ النـصـرـ لاـ يـمـكـنـ فيـ نـظـرـهـمـ إـلـاـ أـنـ يـكـونـ مـؤـقاـ عـارـضاـ.

إن المقدمة العامة لنظرية المادة التاريخية هي إذن كما نرى الآنية العالمية للثورة البروليتارية. وبهذا المعنى فإن العمل في سبيل أن تكون الثورة البروليتارية وشيكـةـ رـاهـنـةـ يـشـكـلـ نـوـاـةـ المـذـهـبـ المـارـكـسـيـ، ويـقـدـمـ أـسـاسـاـ مـوـضـعـياـ لـكـلـ الـمـرـحـلـةـ وـمـفـتـاحـ لـفـوـمـهـاـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ. ولكنـ بالـرـغـمـ مـنـ هـذـاـ التـقـيـدـ الـذـيـ تـجـلـيـ فـيـ الرـفـضـ الصـرـحـ القـاطـعـ لـكـلـ الـأـوهـامـ غـيرـ الـمـبـنـيةـ وـفـيـ الـإـدانـةـ الـصـارـمـةـ لـجـمـيعـ الـمـحاـوـلـاتـ الـانـقلـابـيـةـ التـآـمـرـيـةـ، لمـ يـحـجـمـ التـأـوـيلـ الـأـنـتـهـاـزـيـ عـنـ التـشـبـثـ بـتـفـاصـيـلـ الـأـخـطـاءـ الـمـزـعـومـةـ الـتـيـ اـنـطـوـتـ عـلـيـهـ تـوـقـعـاتـ مـارـكـسـ الـخـاصـةـ مـسـتـهـدـفـاـ مـنـ وـرـاءـ ذـلـكـ، وـبـمـثـلـ هـذـهـ الـحـيـلـةـ الـمـكـشـوـفـةـ، فـصـلـ الـثـورـةـ عـنـ كـلـ الـبـنـاءـ الـمـارـكـسـيـ فـصـلـاـ مـطـلـقاـ جـذـرـياـ. وهـنـاـ عـلـىـ وـجـهـ التـحـدـيدـ يـلـتـقـيـ، فـيـ مـنـتـصـفـ الـطـرـيقـ، الـمـادـافـعـونـ «ـالـأـرـثـوذـكـسـيـوـنـ» عـنـ مـارـكـسـ مـعـ نـقـادـهـ. أـفـلـمـ يـقـلـ كـاوـتـسـكـيـ لـبـرـنـشـتـايـنـ أـنـ هـنـاكـ مـمـكـنـ التـخلـيـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ بـكـلـ هـدـوـءـ وـاطـمـنـانـ عـنـ قـرـارـ دـكـاتـوـرـيـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـ؟ـ

وبـصـدـ هـذـهـ النـقـطـةـ عـلـىـ وـجـهـ التـحـدـيدـ أـعـادـ لـيـنـينـ لـلـنـظـرـيـةـ الـمـارـكـسـيـةـ نـقـاءـهـ. وـحـولـ هـذـهـ النـقـطـةـ عـلـىـ وـجـهـ التـحـدـيدـ جـاءـ صـيـاغـتـهـ لـهـ أـكـثـرـ وـضـوـحـاـ وـعـيـنـيـةـ. وـلـيـسـ ذـلـكـ لـأـنـ هـنـاكـ سـعـىـ بـطـرـيـقـ أوـ أـخـرـ إـلـىـ تـصـحـيـحـ مـارـكـسـ. وـكـلـ مـاـ هـنـاكـ أـنـهـ أـدـخـلـ فـيـ تـلـكـ النـظـرـيـةـ الـمـسـيـرـةـ الـمـسـيـرـةـ لـلـثـورـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـةـ وـشـيكـةـ رـاهـنـةـ يـشـكـلـ نـوـاـةـ المـذـهـبـ الـمـارـكـسـيـ، لـمـ تـعـدـ بـعـدـ الـآنـ مـجـرـدـ أـفـقـ مـنـ آـفـاقـ الـتـارـيـخـ الـعـالـمـيـ الـمـحـلـقـ فـوـقـ الـطـبـقـةـ الـعـاـمـلـةـ الـتـيـ فـيـ سـيـلـهـ إـلـىـ التـحـرـرـ، وـإـنـماـ يـعـنـيـ أـنـ الـثـورـةـ أـصـبـحـتـ مـسـأـلـةـ مـطـرـوـحةـ عـلـىـ جـدـولـ أـعـمـالـ الـحـرـكـةـ الـعـاـمـلـةـ. وـلـقـدـ كـانـ فـيـ وـسـعـ لـيـنـينـ أـنـ يـتـحـمـلـ بـلـاـ مـشـقـةـ تـهـمـةـ الـبـلـانـكـيـةـ الـتـيـ أـصـبـحـتـ بـهـ يـسـبـبـ مـوـقـفـهـ الـمـبـدـئـيـ الـأـسـاسـيـ ذـاكـ، وـلـاـ سـيـماـ أـنـ مـثـلـ تـلـكـ الـتـهـمـةـ كـانـتـ تـتـبـحـ لـهـ أـنـ يـتـمـتـعـ بـعـشـرـةـ مـارـكـسـ الـذـيـ أـتـهـمـ هـوـ الـأـخـرـ بـالـبـلـانـكـيـةـ مـنـ بـعـضـ الـجـوـانـبـ. فـمـنـ جـهـةـ أـوـلـىـ لـمـ يـتـصـورـ لـاـ مـارـكـسـ وـلـاـ لـيـنـينـ آـنـيـةـ الـثـورـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـةـ وـأـيـةـ أـهـدـافـهـ الـنـهـاـيـةـ عـلـىـ أـنـهـاـ قـاـبـلـةـ مـنـ الـآنـ لـلـتـحـقـيقـ بـأـيـ كـيـفـيـةـ كـانـ وـفـيـ أـيـ زـمـانـ كـانـ. وـلـكـنـ آـنـيـةـ الـثـورـةـ مـنـ الـجـهـةـ الـثـانـيـةـ كـانـتـ تـمـثـلـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـاثـنـيـنـ مـعـ الـمـعـيـارـ الـمـوـتـوـقـ لـلـقـرـارـاتـ فـيـ جـمـيعـ الـأـعـمـالـ الـيـوـمـيـةـ. فـآنـيـةـ الـثـورـةـ تـشـيرـ إـلـىـ الـلـحنـ السـائـدـ فـيـ عـصـرـ بـأـكـملـهـ. وـالـأـعـمـالـ الـمـنـفـرـدـةـ تـكـوـنـ ثـورـيـةـ أـوـ مـنـاهـضـةـ لـلـثـورـةـ تـبـعـ لـعـلـاقـتـهاـ بـتـلـكـ النـوـاـةـ الـمـرـكـزـيـةـ، وـهـيـ عـلـاقـةـ لـاـ يـمـكـنـ تـحـدـيـدـهـاـ إـلـاـ عـنـ طـرـيـقـ التـحـلـيلـ الـدـقـيقـ لـمـجـمـوعـ الـوـقـائـعـ الـتـارـيـخـيـ الـاجـتمـاعـيـةـ. إـذـ فـآنـيـةـ الـثـورـةـ تـعـنـيـ مـاـ يـلـيـ: مـعـالـجـةـ كـلـ مـشـكـلـةـ يـوـمـيـةـ خـاصـةـ مـنـ خـلـالـ اـرـتـيـاطـهـ الـعـيـنـيـ بـالـكـلـيـةـ الـتـارـيـخـيـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ، وـاعـتـيـارـ تـلـكـ الـمـشـكـلـاتـ مـراـحـلـ مـنـ تـحرـرـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ. وـالـاغـتـنـاءـ الـذـينـ تـدـيـنـ بـهـ الـمـارـكـسـيـةـ لـلـيـنـينـ يـكـمـنـ بـكـلـ بـسـاطـةـ -ـ بـكـلـ بـسـاطـةـ -ـ فـيـ الـصـلـةـ الـأـوـثـقـ وـالـأـوـضـحـ وـالـأـحـفـلـ بـالـنـتـائـجـ بـيـنـ الـأـعـمـالـ الـمـنـفـرـدـةـ وـبـيـنـ الـمـصـيـرـ الـعـامـ، الـمـصـيـرـ الـثـوـريـ لـلـطـبـقـةـ الـعـاـمـلـةـ بـأـسـرـهـاـ. وـهـذـاـ يـعـنـيـ بـكـلـ بـسـاطـةـ أـيـضاـ بـيـنـ كـلـ مـسـأـلـةـ آـنـيـةـ وـرـاهـنـةـ قـدـ أـصـبـحـتـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ -ـ بـوـصـفـهـ مـسـأـلـةـ يـوـمـيـةـ -ـ مـشـكـلـةـ أـسـاسـيـةـ مـنـ مـشـكـلـاتـ الـثـورـةـ.

لقد طرح تطور الرأسمالية الثورة البروليتارية على جدول الأعمال. وليس لينين هو الوحـيـدـ الـذـيـ رـأـيـ اـقـرـابـ هـذـهـ الـثـورـةـ. وـلـكـنـهـ يـتـمـيـزـ بـجـرأـتـهـ وـإـلـاـصـهـ وـنـكـرـانـهـ لـلـذـاتـ لـاـ عـنـ أـوـلـئـكـ الـذـينـ يـتـوارـوـنـ عـنـ الـأـنـظـارـ بـجـيـنـ فـيـ الـلـحـظـةـ الـتـيـ تـدـخـلـ فـيـهـاـ الـثـورـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـةـ -ـ الـتـيـ كـانـوـاـ يـعـلـمـونـهـاـ وـشـيكـةـ رـاهـنـةـ نـظـرـياـ -ـ فـيـ مـرـحلـتـهاـ الـعـمـلـيـةـ فـحـسـبـ، بـلـ يـتـمـيـزـ أـيـضاـ بـوـضـوـحـهـ الـنـظـريـ عـنـ خـيـرـةـ الـتـورـيـنـ الـمـعاـصـرـيـنـ وـأـصـحـاـهـمـ فـكـراـ وـأـكـثـرـهـمـ إـلـاـصـاـ. ذـلـكـ أـنـ هـؤـلـاءـ الـأـخـيـرـيـنـ لـمـ يـتـعـرـفـوـاـ الـثـورـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـةـ إـلـاـ عـلـىـ النـحـوـ الـذـيـ عـقـلـهـ بـهـ مـارـكـسـ بـنـفـسـهـ فـيـ عـصـرـهـ، أـيـ لـمـ يـتـعـرـفـوـهـ إـلـاـ كـمـشـكـلـةـ أـسـاسـيـةـ تـنـسـحـبـ عـلـىـ الـمـرـحـلـةـ كـلـهـاـ. وـلـكـنـهـمـ لـبـثـواـ عـاجـزـينـ فـيـ الـمـرـحـلـةـ كـلـهـاـ. وـلـكـنـهـمـ لـبـثـواـ عـاجـزـينـ فـيـ الـمـرـحـلـةـ كـلـهـاـ. تـلـكـ الـمـعـرـفـةـ الـصـحـيـحـةـ -ـ الصـحـيـحـةـ مـنـ مـنـظـورـ الـتـارـيـخـ الـعـالـمـيـ وـمـنـهـ وـجـهـ وـجـهـ. الـخـيـطـ الـهـادـيـ الـمـوـتـوـقـ لـمـجـمـوعـ الـجـمـيعـ الـمـسـائـلـ الـيـوـمـيـةـ، أـسـوـاءـ مـنـهـاـ الـمـسـائـلـ الـسـيـاسـيـةـ أـمـ الـاـقـتصـادـيـةـ، الـنـظـرـيـةـ أـمـ الـتـكـيـكـيـةـ، الـتـحـريـضـيـةـ أـمـ الـتـنـظـيمـيـةـ. وـلـيـنـينـ هـوـ الـوـحـيـدـ الـذـيـ خـطـاـ الـخـطـوـةـ نـحـوـ الـمـارـكـسـيـةـ الـعـيـنـيـةـ لـلـمـارـكـسـيـةـ الـعـيـنـيـةـ تـمـاماـ. وـلـهـذـاـ فـإـنـهـ عـلـىـ الصـعـيـدـ الـتـارـيـخـيـ الـعـالـمـيـ الـنـظـرـيـ الـوـحـيـدـ الـذـيـ أـصـبـحـتـ مـذـاكـ عـمـلـيـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ وـوـضـعـهـ فـيـ مـسـتـوـيـ مـارـكـسـ.

2 – البروليتاريا

إن عدم استقرار الأوضاع في روسيا قد تكشف للعيان قبل حقبة طويلة من دخولها في مرحلة التطور الرأسمالي الحقيقي، وقبل حقبة طويلة من ولادة بروليتاريا صناعية فيها. ذلك أن احتلال الإقطاع الزراعي وتفسخ نظام الحكم المطلق البيروقراطي كانا قد أصبحا منذ عهد بعيد حقيقة واقعة لا يماري فيها من حقائق الواقع الروسي، وأفضيا علاوة على ذلك - على صعيد التحرير الفلاحي وتشوير الانتلجانسي المهزوز طبقاً -

إلى ولادة فئات اجتماعية ثارت بين الحين والآخر على القيصرية وإن بصورة غامضة، مبهمة، بدائية خالصة. وغنى عن البيان أن تطور الرأسمالية كان لا بد أن يؤدي إلى زيادة حدة ذلك الانقلاب الموضوعي ونتائج الإيديولوجية الثورية، بالرغم من أن هذا التطور وأهميته البالغة قد غابا حتى عن أصحاب أكثر الناس صحو فكر وأبعدهم نظرا. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر راح يتضح أكثر فأكثر وبصورة ساطعة أن روسيا التي كانت ما تزال في عام 1848 حصن الرجعية الأوروبية تتقدم رويدا رويدا في اتجاه الثورة. وكان السؤال المطروح على بساط البحث هو التالي: ما الطابع الذي سيكون لتلك الثورة؟ ومن ثم: ما الطبيعة التي ستلعب فيها الدور القيادي؟

غنى عن القول أن الأجيال الأولى من الثوريين لم تطرح على نفسها هذا السؤال إلا بصورة شديدة الإبراهام، فهي قد رأت أولا في الجماعات التي كانت تثور على القاصرية كتلة متاجنسة: الشعب. ويدعيه أن الانقسام بين المثقفين والشغيلة الديوبين ما كان من الممكن أن يظل مختلفا عن الانظار حتى في ذلك المستوى من التطور، ولكن لم يكن له أي وزن حاسم البتة لأنه لم يكن من الممكن بعد أن يكون «للشعب» طابع واضح ومحدد من وجها النظر الطبقية، وأن الثوريين الصادقين الخلص هم وحدهم الذين انضموا إلى الحركة من بين سائر المثقفين. ولقد كانت المبادئ الثابتة الراسخة لمؤلاء الثوريين هي الاندماج بـ«الشعب» وخدمة مصالحه وحدها.

ومهما يكن من أمر، لم يكن من الممكن ألا يؤثر تطور أوروبا، حتى في تلك المرحلة من الحركة الثورية، على سير الأحداث، وبالتالي على المنظور الثوري الذي حاكم الثوريون الأحداث ابتداء منه. وهنا لم يكن مفر من أن ينطرب هذا السؤال: هل تطور أوروبا وتتطور الرأسمالية بما المصير المحتمل لروسيا؟ وهل يتوجب على روسيا هي الأخرى أن تمر بحيم الرأسمالية لنجد خلاصها في الاشتراكية؟ أم أنها تستطيع أن تحرق هذه المراحل من التطور بسبب الطبيعة الخاصة لأوضاعها وسبب المشاعرة الفروية التي كانت ما تزال على قيد الحياة، وأن تشق طريقها بصورة مباشرة إلى الشيوعية المتطرفة انطلاقا من الشيوعية البدائية؟

ولم تكن الإجابة على هذا السؤال واضحة أكيدة آنذاك كما يمكن أن تبدو اليوم. أفلم يجب فريديريك إنجلز بنفسه في عام 1882 على النحو التالي: إذا ما أدت الثورة في روسيا إلى اندلاع ثورة بروليتارية في أوروبا في الوقت نفسه، فإن «المملكة المشاعرة الروسية الحالية يمكن أن تتخذ آنذاك نقطة انطلاق لتطور شيوعي».

ولا يتسع المجال هنا للتفريق، ولو بصورة أولية، إلى تاريخ الصراعات النظرية حول هذا الموضوع. وكل ما هنا لاك أن هذا التاريخ ي ملي علينا اختيار نقطة انطلاقنا لمعالجة هذه المشكلة التي انطربت معها بالنسبة إلى روسيا مسألة الطبقة القائمة للثورة القادمة. إذ إنه من الواضح أن الاعتراف بالشيوعية الفروية كنقطة انطلاق وكأساس اقتصادي للثورة يجعل من بالضرورة من الفلاحين الطبقة القائمة للانقلاب الاجتماعي. وانسجاما مع هذا الأساس الاقتصادي-الاجتماعي للثورة، المختلف عن أساس الثورة الأوروبية، كان لا بد للثورة أن تبحث أيضا عن أساس نظري آخر غير المادة التاريخية التي ليست إلا التعبير النظري عن الانتقال المحتمل الذي ينجزه المجتمع بقيادة الطبقة العاملة من الرأسمالية إلى الاشتراكية. أما المناقشة بصدق معرفة ما إذا كانت روسيا على وشك التطور باتجاه الرأسمالية وما إذا كانت الرأسمالية قادرة على التطور في روسيا، وكذلك المساجلة العلمية-المنهجية بصدق معرفة ما إذا كانت المادة التاريخية نظرية للتطور الاجتماعي تصلح لكل زمان ومكان، وأخيرا المناظرة بصدق معرفة الطبقة الاجتماعية المدعومة لأن تصبح المحرك الحقيقي للثورة الروسية، فإنها تدور جميعها حول المشكلة نفسها، وهي كلها تعبير أيديولوجي عن تطور البروليتاريا الروسية، مراحل من تطور استقلالها الأيديولوجي (وبالتالي التكتيكي والتنظيمي الخ) إزاء سائر طبقات المجتمع.

وهذا التطور هو في الواقع صيورة شاقة وطويلة النفس، يتوجب على كل حركة عاملة أن تجذبها. ولا مجال هنا للكلام عن مشكلات روسية نوعية باستثناء المشكلات الخاصة التي تضفي المزيد من الأهمية على خصوصية الأوضاع الطبقية وعلى استقلال صالح البروليتاريا الطبقية (كانت الطبقة العاملة الألمانية في مثل هذه المرحلة في أيام لاسال وبيبل وشفايباتر، وكانت الوحدة الألمانية تمثل بالنسبة إليها مسألة حاسمة). ولكن هذه المشكلات المحلية الخاصة ينبغي أن تجد لها حالا حقيقيا، بوصفها مشكلات محلية خاصة، من اللحظة التي تنتظر فيها على البروليتاريا مسألة استقلال عملها من **منظور خط طبقي محدد**. وخير الإنشاءات النظرية لا تفيد هنا شيئا البتة إذا ما اقتصرت على **ما هو عام**، وهي لا تصبح ناجحة فعالة في الممارسة إلا إذا أوجدت الحل الصحيح لتلك المشكلات **الخاصة** (ومن الأمثلة على ذلك ويلهلم ليينكشت، الأمميين المندفع وتلميذ ماركس المباشر، الذي لم ينجح في غالب الأحيان في الوصول إلى القرار الصحيح الواجب اتخاذه بصدق المسائل الخاصة، شأنه في ذلك شأن أتباع لاسال الذين كانوا أكثر بلبلة وإيهاما بكثير من الزاوية النظرية المحسنة). ولكن ثمة واقعة روسية نوعية جديرة بأن تلفت الانتباه وهي أن النطاف النظري المتعلق باستقلال البروليتاريا ويفهم طبيعة دورها القيادي في الثورة الصاعدة لم يجد حلـه الصحيح والواضح والدقيق في أي قطر آخر كما وحده في روسيا. وبذلك أمكن للبروليتاريا الروسية أن تتجنب إلى حد كبير الترددات والانتكاسات التي تستطيع أن نلاحظها في جميع الأقطار المتطرفة بلا استثناء، لا فيما يتعلق بنتائج الصراع الطبقي حيث لا مفر من الترددات والانتكاسات، وإنما فيما يتعلق بالوضوح النظري وسلامة تكتيك الحركة العاملة وتنظيمها. وقد استطاعت البروليتاريا الروسية - وعلى الأقل أوعى فئاتها - أن تتطور بمثل هذا الصفاء والوعي نظريا وتنظيميا، على نفس النحو الذي تطور به وضعها الطبقي الموضوعي انطلاقا من القوى الاقتصادية للرأسمالية الروسية.

ولم يكن لينين أول من شرع بهذا النضال. ولكنه الوحيد الذي طرح جميع المسائل طرحاً جذرياً ومن جميع جوانبها، والوحيد الذي طبق عملياً وبصورة جذرية فهمه النظري.

إن لينين لم يكن إلا أحد الناطقين النظريين بلسان النضال ضد الاشتراكية الروسية «الأصلية» وضد النارودنيين⁽¹⁾. وهذا شيء يسهل فهمه، لأن نضاله النظري كان يستهدف البرهان على الدور القيادي والمستقل للبروليتاريا في مصير روسيا مستقبلاً. ولكن لما كانت طريق هذه المناقشة ووسائلها تقوم، ولا يمكن إلا أن تقوم على إثبات أن المسار النموذجي الذي رسمه ماركس لتطور الرأسمالية (الترجم المبادئي) قابل للانطباق أيضاً على روسيا، لذا فإن تلك المساجلات كان لا بد أن تقود، بصورة مؤقتة، الناطقين بلسان النضال الطبقي البروليتاري وأيديولوججي الرأسمالية الروسية إلى موقع مشتركة. الواقع أن التمايز النظري للبروليتاريا عن تلك الكتلة الهلامية المتخترة التي يشكلها «الشعب» لم يؤد بصورة آلية إلى تفهم استقلالها ودورها القيادي وإلى الاعتراف بهما. بل على النقيض من ذلك تماماً! فالنتيجة الميكانيكية وغير الجدلية التي استخلصت من إقامة البرهان على أن ميل تطور الحياة الاقتصادية في روسيا تسير باتجاه الرأسمالية أوحت بضرورة الاعتراف التام بهذه الحقيقة الواقعية وتشجيع قيامها وتحقيقها. وهذا ليس فحسب بالنسبة إلى البروجوازية الليبرالية التي تصبح أيديولوجيتها - «الماركسيّة» مؤقتاً - ميسورة الفهم إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الماركسيّة هي النظرية الاقتصادية الوحيدة التي تؤكد أن الرأسمالية تكون بالضرورة انطلاقاً من تفاسخ العالم ما قبل الرأسمالي وانحلاله. وإنما أيضاً، وبالدرجة الأولى، بالنسبة إلى جميع الماركسيين «البروليتاريين» الذين يفهمون الماركسيّة فيما ميكانيكيّاً غير جدليّ، والذين لا يدركون - بخلاف ما تعلمته ماركس من هيغل وما أدخله في نظريته بعد أن حرره من كل ميتولوجيا ومن كل مثالية - أن الاعتراف بالوجود الفعلي لواقعة من الواقع أو لميل من الميل لا يعني في الوقت نفسه الاعتراف بهذا الميل أو بتلك الواقعية **حقيقة واقعة محددة للعمل**. وصحّ أن الواجب المقدس لكل ماركسيّي أصبح أن يواجه الواقع بلا أوهام وبلا خوف، ولكن من واجبه أيضاً أن يدرك أن هناك شيئاً أكثر صحة، وبالتالي أكثر أهمية، من الواقع المعنزعه أو الميل، وأعني بذلك **واقع الحركة العامة**، كلية تطور المجتمع. وهذه كتب لينين: «إن من مهمة البروجوازية تطوير التروستات، وإرسال الأولاد والنساء إلى المصانع، واستنفاد قواهم وإنهاكم في العمل فيها، ودفعهم إلى حضيض البؤس. ونحن لا «نطالب» بمثل هذا التطور، نحن لا نؤيده، بل نناضل على العكس ضده. ولكن بأي طريقة نناضل ضده؟ إننا نعلم أن التروستات وعمل النساء في المصانع تمثلاً تقدماً. ونحن لا نريد أن نرجع القهقرى نحو الصناعة اليدوية ونحو الرأسمالية غير الاحتكارية ونحو عمل النساء في البيوت. وإنما إلى الأمام عبر التروستات، ومن ورائها إلى الاشتراكية!».

وبذلك تكون قد حددنا الزاوية التي يحلّ منها لينين كل هذه المجموعة من المسائل. وينجم عن ذلك أن الاعتراف بضرورة تطور روسيا الرأسمالي، والاعتراف بما يصاحب هذا التطور من تقدم تاريخي، لا يعني البتة أن من واجب البروليتاريا أن تساند هذا التطور. فهي مرغمة على أن تحبي هذا التطور الذي يمهد وحده الطريق لتدخل البروليتاريا كعامل حاسم القوة. ولكن عليها أيضاً أن تحبّيه بوصفه **شرطًا مسبقاً لنضالها القاسي** هي بالذات ضد عامل هذا التطور: ضد البروجوازية.

وإنما بفضل هذا الفهم الجدلي لضرورة الميل التاريجية ينفتح المجال النظري لظهور البروليتاريا على مسرح الصراع الطبقي ظهوراً مستقلاً. أما فيما لو أكينا ضرورة تطور روسيا الرأسمالي، كما يفعل ذلك الأبطال الأيديولوجيون للبروجوازية الروسية وفي مرحلة لاحقة المناشفة، لكان علينا أن نستنتج من ذلك أن على روسيا أن تنجز قبل كل شيء تطورها الرأسمالي. وعامل هذا التطور هو البروجوازية. ومن ثم فإن النضال الطبقي المستقل للبروليتاريا لا يمكن أن يبدأ إلا بعد أن يكون ذلك التطور قد قطع شوطاً كبيراً، والا بعد أن تكون البروجوازية قد أزاحت من الطريق بقايا أنقاض الإقطاع السياسية والاقتصادية وأقامت مكانها بلداً حديثاً، رأسمانياً، ديمقراطياً، الخ. وبال مقابل لا جدوى البتة من ظهور البروليتاريا ذات الأهداف الطبقية المستقلة على مسرح الأحداث قبل الأوان، وهذا لا لأن البروليتاريا لن يكون لها من حساب كفوة مستقلة بنفسها في الصراع بين البروجوازية والقيصرية فحسب، بل أيضاً لأنها قد تكون نذير شؤم بالنسبة إلى ذلك الصراع، إذ أنها ستبعث الذعر في البروجوازية وتضعف قدرتها على مواجهة القيصرية وتلقي بها مباشرة في أحضان القيصرية. إذن فمن واجب البروليتاريا ألا تدخل - آنياً - في الصراع إلا بوصفها قوة مساعدة للبروجوازية الليبرالية في كفاحها من أجل روسيا حديثة.

ومن الواضح، حتى ولو أن هذه المسألة لم تنجلي كل الانجلاء في المناقشات السالفة، أن آية الثورة كانت الأساس في كل تلك المناظرة، وأنه إنما بدءاً منها شرعت الطرق بالافتراق بالنسبة إلى المتناظرين الذين ما كانوا هذه المرة من الأيديولوجيين البروجوازيين المتفاوتين في درجة الوعي. ولقد كانت المسألة المطروحة على بساط البحث هي معرفة ما إذا كان من الواجب اعتبار الثورة مشكلة راهنة، مسألة مطروحة على جدول أعمال الحركة العمالية، أم ما إذا كان من الواجب الافتراض بأن الثورة عاجزة بوصفها «هذا نهائياً» نائياً عن ممارسة تأثير حاسم على القرارات الآية. ومع ذلك فإنه لأكثر من مشكوك فيه أن تكون قد وجدت قط إمكانية لقبول البروليتاريا بوجهة النظر المنشفية حتى ولو لمكن الاعتراف بصحة منظوراتها التاريخية. وفي استطاعتنا بالفعل، وبعد طول ترّوٌ، أن نتساءل عما إذا لم تكن مثل هذه الاتباعية الذليلة إزاء البروجوازية كفيلة

(1) أي الشعبين، وهو من الاشتراكيين البروجوازيين الصغار الذين كانوا يتصورون أن الفلاح هو رجل الغد في روسيا. (المغرب).

ببلبلة وعي البروليتاريا الطبقي إلى درجة يصبح معها عمل البروليتاريا المستقل على الصعيد الأيديولوجي مستحيلاً أو صعباً للغاية على الأقل في حال الانفصال عن الورجوازية، وهذا حتى في مرحلة تاريخية يفترض فيها أنها مناسبة من وجهاً نظر النظرية المنشافية (والحركة العاملة الإنكليزية تقدم مثلاً ساطعاً على ذلك). وبديهي أن مثل هذه الفرضية تعتبر بحكم الباطلة على صعيد الممارسة. ذلك أن جدل التاريخ الذي يسعى الانهازيون إلى استئصاله من الماركسية يبقى مع هذا فعالاً فيهم رغم أنوفهم وإرادتهم، ويدفع بهم إلى معسكر الورجوازية، ومن هنا كان إرجاؤهم إلى أجل غير مسمى، إلى مستقبل بعيد ضبابي لن يصبح أبداً حاضراً، للحظة التي يفترض فيها أن تظهر البروليتاريا على المسرح ظهوراً مستقلاً.

لقد استصوب التاريخ رأي لينين ورأي القليلين من أمثاله المبشرين بأنية الثورة. فالتحالف مع **البورجوازية التقديمية**، الذي تكشف منذ عصر النضال في سبيل الوحدة الألمانية على أنه وهم من الأوهام، ما كان ليكون خصباً إلا إذا كان في وسع البروليتاريا كطبقة أن تسير في ركب الورجوازية إلى حد التحالف مع القيسارية. ذلك أن أنية الثورة البروليتاريا تعني أن الورجوازية قد كفت عن أن تكون طبقة ثورية. وصحّ أن التطور الاقتصادي الذي طلت هي عامله والمتفق منه يمثل تقدماً إزاء الحكم المطلق والإقطاع، ولكن طابع الورجوازية التقديمية هذا أصبح بدوره جدلياً. وهذا معناه تراخي الارتباط الضروري بين الشروط الاقتصادية لوجود الورجوازية وبين مطالب الديمقراطية السياسية والدولة الدستورية الخ، تلك المطالب التي حققتها جزئياً الثورة الفرنسية الكبرى على أنفاس الحكم المطلق الإقطاعي. والواقع أن الاقتراب المتتسارع للثورة البروليتاريا يفسح من جهة أولى إمكانية تحالف بين **البورجوازية والحكم المطلق الإقطاعي** يترك اليمينة السياسية للقوى السائدة القديمة ويضمن في الوقت نفسه الشروط الاقتصادية لوجود الورجوازية ونومها، ويلقي من الجهة الثانية على عائق الثورة البروليتاريا بعء إنحراف المطالب الثورية القديمة **للبورجوازية** التي لا يتبقى لها من مصير غير الانحلال الأيديولوجي. وبالرغم من أن ذلك التحالف بين الورجوازية والقوى السائدة القديمة يظل بعيد الاحتمال لأنه سيكون تسوية يملئها الخوف المشترك من آفة أدهى وليس تحالفاً طبقياً قائماً على رابطة إيجابية من المصالح المشتركة، فإنه يشكل مع ذلك واقعة جديدة وهامة. واقعة يتكشف إزاءها «البرهان» التعميمي والميكانيكي القائم على «الارتباط الضروري» بين التطور الرأسمالي والديمقراطية على أنه مجرد وهم من الأوهام. ولقد قال لينين: «إن الديمقراطية السياسية ليست بصورة عامة سوى أحد الأشكال الممكنة للبني الفوقي للرأسمالية (حتى وإن كانت هي الطبيعية نظرياً بالنسبة إلى الرأسمالية «الخالصة»). والرأسمالية والإمبرالية على حد سواء تتطوران، كما أثبتت الواقع، تحت أي شكل سياسي كان، وتقسيران ذاتهما على التكيف مع جميع هذه الأشكال». وفي روسيا يوجه خاص تم تحول الورجوازية السريع هذا وانتقالها من المعارضة الجذرية ظاهراً إلى تأييد القيسارية على أساس من أن الرأسمالية، التي لم تعرف في روسيا تطولاً «عضوباً» وإنما نقلت إليها غراسها من الخارج، أظهرت منذ بداياتها طابعاً احتكارياً بارزاً (هيمنة المشاريع الكبيرة، ودور الرأس المال المالي، الخ). وقد نجم عن ذلك أن الورجوازية الروسية كانت عبارة عن فئة اجتماعية أضعف عديداً وأوهن اجتماعياً من بورجوارات البلدان الأخرى التي شهدت تطوراً رأسمالياً أكثر «عضوباً». كما نجم عن ذلك أيضاً أن البروليتاريا الثورية وجدت في المشاريع الكبيرة الأساس المادي الضروري لتطورها الذي جاء أسرع بكثير مما كان يفترضه التأويل الإحصائي المحسن لوتيرة تطور الرأسمالية في روسيا.

ولكن إذا ما انتصر أن التحالف مع الورجوازية الليبرالية هو بمثابة وهم من الأوهام، وإذا ما قطعت البروليتاريا التي دفعت غالياً ثمن استقلالها صلتها نهائياً بمفهوم «الشعب» السديمي، أفلن تجد نفسها في النهاية، وعلى وجه التحديد بسبب ذلك الاستقلال الذي لم تتوصل إليه إلا بصعوبة بالغة، في عزلة لاأمل لها. وقد حكم عليها بأن تخوض صراعاً كثب عليه سلفاً الفشل الأكيد؟ لقد كان هذا الاعتراف السهل التصور الذي طالما شهر في وجه رؤية لينين للتاريخ قابلاً لأن يؤخذ به فيما لو أن رفض نظرية النارودينيين الزراعية والاعتراف بحتمية انحلال بقايا الشيوعية الزراعية لم يكونا هما أيضاً من طبيعة جدلية. فجدل صيورة الانحلال تلك إنما يمكن فيما يلي: إن ضرورة انحلال تلك الأشكال ليس لها من معنى واضح محدد إلا من زاوية سلبية ومن حيث أنها صيورة انحلال. وانطلاقاً من هذه الصيورة يستحيل كل الاستحالة تحديد المال الذي ستتحذله من زاويتها الإيجابية. فالمسألة تتعلق بتطور السياق الاجتماعي وبمصير الكلية التاريخية. وبلغة أقل تجريداً، يمكن لصيورة انحلال الأشكال الزراعية القديمة (بدءاً من الملك العقاري الكبير إلى الفلاح الصغير)، وهي الصيورة المحتملة اقتصادياً، أن تتم بطرقتين. أو على حد تعبير لينين: «إن كلاً شكلي الانحلال يسهلان، كلاً على طريقه، الانتقال إلى درجة أعلى من التقنية، وطريق تقدم الزراعة يمر بكليهما على حد سواء». أما الطريق الأول فهو تطوير الحياة الفلاحية من جميع بقايا العصور الوسطى (وما قبل الوسطى أيضاً). أما الطريق الثاني، الذي يصفه لينين بأنه «الطريق البروسي»، يتميز بأن تصفيته تركيبة العصور الوسطى فيما يتعلق بعلاقات الملكية العقارية لا تتم دفعة واحدة، وإنما من خلال تكيف تدريجي مع الرأسمالية». وكلما هذين الطريقين ممكناً، وكلاهما يمثل تقدماً من وجهة النظر الاقتصادية بالمقارنة مع الوضع القائم. ولكن إذا كان هذان الميلان ممكниين كليهما، وإذا كانوا تقدميناً كليهماً بمعنى من المعاني، فمن ذا الذي سيقرر إتباع أحد الطريقين دون الآخر؟ الحق أن جواب لينين على هذا السؤال كما على سائر الأسئلة واضح دقيق: إنه الصراع الطبقي.

وبذلك ترسم بوضوح أكبر وبصورة ملموسة أكثر المعالم الكبرى للسياق الكبرى للبروليتاريا أن تظهر فيه ظهوراً مستقلاً يوصفها طبقة قائدة. ذلك أن **القوة الحاسمة** في ذلك الصراع الطبقي، الذي يعني بالنسبة إلى روسيا الانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، لا يمكن أن تكون غير البروليتاريا.

فالفلاحون غير قادرين إلا على تمرد بدائي ضد أوضاعهم التي لا تطاق ولا تبني تتفاهم، وعجزهم عن القيام بأكثر من تمرد بدائي لا يعود إلى مستواهم الثقافي المختلف إلى حد مريع فحسب، بل وعلى الأخص إلى وضعهم الظيفي الموضوعي. فبحكم وضعهم هذا كتب عليهم أن يبقوا فئة اجتماعية متعددة بين سياسات عده، طبقة يتعلق مصيرها في خاتمة المطاف بالصراع الظيفي في المدن، بمصير المدن، بالصناعة الكبيرة، بجهاز الدولة الخ.

ولما في هذا السياق وحده يكون القرار بين يدي البروليتاريا. وليس من المستبعد أن تكون آفاق نضالها ضد البورجوازية، في اللحظة التاريخية المحددة، أقل انفتاحاً وغنى فيما لو نجحت البورجوازية في أن تصفي لحسابها الخاص إقطاعية الوضع الزراعي الروسي. والحق أن الفيصرية، التي عقدت عليها هذه المهمة وصعيتها، هي التي تفسر بصورة رئيسية موقفها الثوري العارض أو على الأقل معارضتها لها. ولكن ما دامت تلك المسألة لما تحل بعد، فمن الممكن في كل لحظة أن يقوم ملابين الفلاحين المسترقين والمستغلين أبشع استغلال بتمرد بدائي. والبروليتاريا هي وحدها التي تستطيع أن تعطي هذا التمرد البدائي اتجاهها محدداً قادراً على قيادة حركة الجماهير إلى هدف مفيد لها حقاً. وفي هذه الحال سيخلق ذلك التمرد البدائي الشروط التي تستطيع فيها البروليتاريا أن تباشر المعركة ضد الفيصرية والبورجوازية ضامنة لنفسها كافة شروط الانتصار.

وهكذا فإن بنية روسيا الاقتصادية والاجتماعية هي التي خلقت الأساس الموضوعية للتحالف بين **البروليتاريا والللاحالين**. فالآهداف الطبقية للبروليتاريا والطبقة الفلاحية مختلفة. وهذه كان من الواجب أن يتخلع اجتماعهما السديمي في مفهوم «الشعب» المبهم الذي قال به الشعبيون. ولكنهما ما كانتا قادرتين بالمقابل على تحقيق أهدافهما الطبقية المختلفة إلا عبر النضال المشترك. وبذلك تعاود فكرة النارودينيين القديمة عن طابع الثورة الروسية ظهورها في التصور اللبناني، ولكن بعد أن طرأ عليها تحول جدلي. فقد كان من الواجب استبعاد مفهوم «الشعب» المبهم والمجرد حتى يظهر مكانه، انطلاقاً من التفهم العيني لشروط قيام ثورة بروليتارية، مفهوم الشعب بمعناه الثوري أي التحالف الثوري بين جميع المضطهدين. وهذه يعبر حزب لبنين نفسه، وعن حدارته، وربت تقاليد النارودينيين الثورية حقاً. ولكن لما كان الوعي المطلوب لمثل هذا النضال والقدرة على قيادته لا يتوفران إلا في **وعي البروليتاريا الظيفي**، لذا فإن في وسع البروليتاريا ومن واجبها معاً أن تصبح في الثورة التي يتعاظم مدها الطبقة القائدة للانقلاب الاجتماعي.

3 – حزب البروليتاريا القائد

إن رسالة البروليتاريا التاريخية، إذن هي نبذ كل تفاهم أيديولوجي مع الطبقات الأخرى والوصول إلى وعيها الظيفي الواضح الصافي القائم على خصوصية وضعها الظيفي واستقلال مصالحها الظيقية. وبهذه الصورة وحدها ستكون قادرة على قيادة جميع المضطهدين والمستغلين في المجتمع البورجوازي في مجرى النضال المشترك ضد سادتهم السياسيين والاقتصاديين. والأساس الموضوعي لدور البروليتاريا القيادي هو دورها في عملية الإنتاج الرأسمالية. ييد أنها س تكون قد طبقنا النظرية الماركسية تطبيقاً ميكانيكيّاً وعلينا بالتالي أنفسنا بأوهام معاكسة للحقيقة التاريخية إذا ما تصورنا أن الوعي الظيفي الصحيح والقادر على تمهيد الطريق إلى الاستيلاء على السلطة يمكن أن يولد من تقاء نفسه في قلب البروليتاريا بصورة تدريجية بلا عقبات ولا نكسات، كما لو أن **البروليتاريا تستطيع أيديولوجياً أن تستوعب رويداً رويداً وتتشعب بفكرة دعوتها الثورية وفق خطٍّ ظيفي**. فلقد أظهرت المناقشات حول أطروحات برنشتاين بوضوح استحالة تحول الرأسمالية إلى اشتراكية عن طريق النمو المطرد. بين أن الآثار الإيديولوجية لهذا المذهب بقيت قائمة وناشطة في فكر العديد من النوربيين المخلصين في أوروبا من غير أن تفنن وتندحر، بل من غير أن تغير مشكلة أو خطراً. وليس ذلك لأن النوربيين والمتزمرين منهم قد تجاهلوا حقاً وجود هذه المشكلة وأهميتها، أو لأنهم لم يدركوا أن انتصار البروليتاريا النهائي لا بد أن يمر بدرء طويل وأن يتعرض لهزائم عديدة وأن الانتكسات في مستوى التطور محتومة لا على الصعيد المادي وحده بل على الصعيد الأيديولوجي أيضاً. والحق أنهم كانوا يعلمون - على حد تعبير روزا لوکسمبورغ - أن الثورة لا يمكن أن تقوم قبل الأوان من وجهة نظر المقدمات الاجتماعية والاقتصادية، ولكنها ستقوم بالضرورة قبل الأوان من منظور الوعي الظيفي، أي قبل أن تتمثل البروليتاريا في مجموعها الوعي الظيفي الاشتراكي وقبل أن تصبح قادرة بالتالي على الاحتفاظ بالسلطة. وحتى لو افترض المرء، من خلال هذا المنظور التاريخي المتعلق بالطريق الذي يتوجب على البروليتاريا أن تتجاوزه لكي تتحرر، أن التربية الذاتية الثورية العفوية للجماهير البروليتارية (من خلال الأعمال الجماهيرية ودورس الأعمال الجماهيرية)، المدعومة بتحريض ودعابة حزبيتين صحيحتين نظرياً، تكفي لضمان التطور الضروري، أقول حتى لو افترض مثل هذا الافتراض فإنه لا يكون قد تجاوز بصورة أو بأخرى وجهة نظر أيديولوجيا العفوية، أيديولوجياً دخول البروليتاريا الآلي والتدرج في دعوتها الثورية.

ولقد كان لبنين الأول - والأوحد لحقبة طويلة من الزمن - بين الزعماء والنظريين المرموقين في تصديه للمشكلة المركزية من وجهة النظر النظرية والحاصلة من وجهة النظر العملية: أعني من زاوية التنظيم. ولقد بات معروفاً اليوم الخلاف بصدر البند الأول من النظام الداخلي للحزب في المؤتمر المنعقد في بروكسل ولندن

في عام 1903. فلقد كانت المسألة هي معرفة ما إذا كان من الممكن اعتبار كل من يؤيد الحزب ويعمل تحت إشرافه عضواً في الحزب (كما كان يريد ذلك المناشفة)، أم ما إذا كانت المساهمة في المنظمات الحزبية اللاشرعية وتكرис المرء ل الكامل حياته في عمل الحزب والتقييد المطلق بانضباط الحزب الصارم إلى أبعد الحدود ضرورية لاكتساب العضوية الحزبية (كما كان يريد ذلك البلاشفة). أما المسائل التنظيمية الأخرى، وعلى سبيل المثال المركزية، فإنها ليست سوى النتائج الضرورية والموضوعية لذلك الموقف الأولي. ثم إن تلك المناظرة لا تصبح مفهومية إلا انتلاقاً من موقفين أساسيين متعاكسيْن حول إمكانية الثورة ومبرارها وطابعها، وهي مشكلات لم يتصدَّ غير لينين وحده لتحليلها في عصره.

إن الخطة التنظيمية البليشفية تولي اهتماماً الأول لا لمجموع الطبقة التي تشكل بهذا القدر أو ذاك كتلة سديمية، وإنما لفئة من تلك الطبقة مؤلفة من الثوريين الوعيين للهدف والمستعددين لجميع ضروب التضحيات. ولكن لا يكُون هناك خطر في هذه الحال من أن ينفصل أولئك «الثوريون المحترفون» عن حياة طبقتهم وأن ينحطوا من خلال هذا الانفصال إلى جماعة متآمرين، إلى عصابة؟ أليسَ تلك الخطة التنظيمية مجرد نتيجة عملية لتلك «البلانكية» التي زعم التحريريون «البعيدو النظر» أنهم اكتشفوها لدى ماركس نفسه؟ إن المجال لا يتسع هنا لكي ندرس مدى خطأ هذه التهمة حتى بالنسبة إلى بلانكي. وهي لا تمس على كل الأحوال أساس المذهب اللييني التنظيمي، لأن لينين لم يتصور في أي لحظة من اللحظات أن رسالة فئة الثوريين المحترفين هي أن «تصنع» الثورة أو أن تجر معها بعملها المستقل والجريء الجماهير الخامدة وأن تضعها بمعنى ما أمام الثورة كامر واقع. إن **فكرة الليينية عن التنظيم تشرط و تستلزم واقعية الثورة وأنية الثورة**. ولو صدقَت توقعات المناشفة التاريخية، ولو قامَت مرحلة من الازدهار الهدائي نسبياً ومن تطور الديموقراطية، المتدرج، مرحلة يتصدى فيها «الشعب» والطبقات «التقدمية» لتكنيس بقايا الإقطاعية، في البلدان المتأخرة، وكانت فئات الثوريين المحترفين قد تحجرت آنذاك وسقطت في النزعة العصوبية أو لكانَت أصبحت في أحسن الأحوال مجرد حلقات للدعابة. ولكن الحزب بوصفه تنظيماً م مركزاً إلى أبعد الحدود لأوعي عناصر البروليتاريا - وهذه العناصر دون غيرها - هو في التصور اللييني **أداة صراع الطبقات في مرحلة ثورية**. ولقد كان لينين يقول: «ليس من الممكن فصل المسائل السياسية عن المسائل التنظيمية بصورة ميكانيكية»، ومن يؤيد أو يرفض التنظيم البليشفى للحزب دونما اعتبار لوجوده أو لعدم وجوده في عصر الثورات البروليتارية لا يفهم شيئاً من ماهية ذلك التنظيم.

ولكن من الممكن، من وجهة نظر معاكسَة تماماً، تقديم الاعتراض التالي: إن آنية الثورة تجعل على وجه التحديد من ذلك التنظيم فائضاً عن الحاجة. وربما كان من المفيد إبان فترة جمود الحركة الثورية وانحسارها تجميع الثوريين المحترفين في منظمة قائمة في ذاتها. ولكن مثل هذه المنظمة تصبح لا مجده ولا معنى لها في السنوات الثورية، عندما تكون الجماهير قد دخلت في مرحلة البلبلة والانقلاب العميقين، وعندما تكون قد أصبحت قابلة للنضج السريع وقدرة على أن تراكم من التجارب الثورية في مدى أسبوع، بل في مدى أيام أحياناً، ما لم تكن قادرة عليه في عشر سنين، وعندما تظهر على مسرح الثورة حتى تلك العناصر من الطبقة التي لا تساهِم عادة في الحركة حتى ولو كانت المسألة متعلقة بمصالحها اليومية المباشرة. وتنظيم الثوريين المحترفين يبذر في هذه الحال طاقات كان يمكن الاستفادة منها، وهو يصبح في حال امتداد تأثيره عائقاً في وجه نشاط الجماهير الثوري الخلائق العفوي.

وحيّي واضح أن هذا الاعتراض يرجعنا إلى المشكلة التي سبقت إثارتها: كيف يمكن للبروليتاريا من وجهة النظر الإيديولوجية أن تستوعب تدريجياً دعوتها الثورية وفق خط طبقي؟ إن «البيان الشيوعي» يحدد بوضوح كبير العلاقات بين حزب البروليتاريا الثوري وبين مجموعة الطبقة: «إن الشيوعيين لا يتميزون عن سائر الأحزاب العمالية إلا في نقطتين: ففي مختلف نضالات البروليتاريين القومية يضعون في المقدمة ويزرون المصالح المستقلة عن القومية والمشتركة بين جميع البروليتاريات، وفي مختلف المراحل التي يمر بها النضال بين البروليتاريين والبورجوازيين يمثلون دوماً مصالح البروليتاريا في جملتها. إذن فالشيوعيون هم، من الناحية العملية، أحزم فريق من أحزاب العمال في شتى الأقطار، الفريق الذي يجر رWARE كل الفرق الأخرى. أما من الناحية النظرية فإنهم يمتازون على سائر البروليتاريا بتفهم واضح لشروط مسيرة الحركة البروليتارية وأهدافها العامة». وبعبارة أخرى، **إنهم التجسيد المنظور لوعي البروليتاريا الطبقي**. ومسألة تنظيمهم تتصل بالطريقة التي ستكتسب بها البروليتاريا وعيها الطبقي الذائي وتمثله تماماً. وكل مَن لا يذكر الوظيفة الثورية للحزب أو يماري فيها، لا يجد مناصاً من الاعتراف بأن اكتساب الوعي الطبقي لا يتم بصورة آلية وبدفع ميكانيكي من قوى الإنتاج الرأسمالي الاقتصادية، ولا من خلال التطور العضوي لعفوية الجماهير. والفارق بين تصور لينين عن الحزب وبين تصورات الآخرين يقوم بصورة جوهيرية على نقطتين اثنتين: أولاهما التعمق، في تحليل التمايز الاقتصادي في أوساط البروليتاريا (ظهور الأرستقراطية العمالية، الخ) بهدف استخلاص جميع نتائجه، وثانيةهما طرح تعاون البروليتاريا الثوري مع الطبقات الأخرى من خلال المنظور التاريخي الجديد المحدد على النحو الذي أسلفنا. وينجم عن هذا التصور تعاظم أهمية البروليتاريا في إعداد الثورة وقيادتها، وبالتالي تعاظم أهمية الدور القيادي للحزب تجاه الطبقة العاملة.

إن ولادة الأرستقراطية العمالية وأهميتها المتعاظمة تقضي من وجهة النظر هذه إلى الواقعية التالية: إن التباين الدائم، وإن النسبي، بين المصالح اليومية المباشرة لبعض الفئات العمالية وبين المصالح الحقيقية للطبقة برمتها لا يبني يتفاهم ويأخذ شكلًا متحجراً في مجرى ذلك التطور. فالتطور الرأسمالي الذي سوى في

بادئ الأمر ووحد بالقوة الطبقة العاملة التي كانت منقسمة على نفسها بحكم التباعد الجغرافي ووجود الطوائف المهنية الخ، يخلق الآن تميزاً جديداً بين ظهورانها. ولبيت النتيجة الوحيدة لهذا التمايز الجديد أن البروليتاريا ما عادت تناصب البورجوازية العداء بدرجة واحدة من الإجماع، وإنما من نتائجه أيضاً ظهور خطر جديد ناجم عن احتمال وإمكانية تأثير تلك الفئات الاجتماعية على الطبقة العاملة بأسرها وإرغامها على التقophobia والانتكاس إيديولوجياً، وذلك بقدر ما تكتسب تلك الفئات، بحكم طراز حياتها البورجوازي الصغير واحتلالها مناصب مرموقة في بيروقراطية الحزب والنقيابات وأحياناً في البلديات. الخ، أقول بقدر ما تكتسب نوعاً من التفوق على سائر الفئات البروليتارية من حيث الثقافة الشكلية والروتين الإداري الخ، وهذا بالرغم (أو بالأحرى بحسب) من إيديولوجيتها المتبرجة والنقص في نضج وعيها الطبقي البروليتاري. وبعبارة أخرى، إنها تسهم من خلال تأثيرها ونفوذها في منظمات البروليتاريا، في تشويش وعي العمال الطبقي وفي توجيه هؤلاء العمال بجميع فئاتهم نحو تفاهمنا ضمني مع البورجوازية.

وازاء مثل هذا الخطر لا يعود يكفي لاوضوح الرؤية النظرية الذي يفترض في الفئات الثورية الوعائية أن تتمتع به، ولا التحرير والدعابة الصحيحان المناسبان. والسبب في ذلك أن تلك المصالح المتناقضة لا تجلّى بوضوح لجميع العمال على مدى حقبة زمنية طويلة، إلى درجة لا يتبيّن معها أحياناً ممثليهم الإيديولوجيون أنهم قد حادوا فعلاً عن دروب الطبقة العاملة في مجدهم. ولهذا يكون من الممكن بسهولة كبيرة إخفاء تلك الفروق عن أنظار العمال وتصوّرها لهم على أنها مجرد «احتلالات تكتيكية». ونتيجة ذلك تجد **غريزة العمال الثورية** التي تتفجر في بعض الأحيان على شكل أعمال جماهيرية عفوية واسعة، تجد نفسها عاجزة عن الإبقاء على الوعي الطبقي في المستوى الذي وصل إليه من خلال العمل العفوي وعن الاحتفاظ به كمكتسب دائم للطبقة العاملة بأسرها.

وحتى لو لم يكن هناك من سبب آخر لكان هذا السبب وحده كافياً ليفرض ضرورة التنظيم المستقل للعناصر الطبقية الوعائية كل الوعي. ولكن هذه الدراسة تظهر لنا أن **الشكل التنظيمي مرتبط في نظرلينين أوثق الارتباط بتوقع أزوف ساعة الثورة**. لأنه إنما في مثل هذا السياق وحده يأخذ كل انحراف عن الطريق الحقيقي للطبقة العاملة صفة بالغة الخطورة والضرر، ويكتسب كل قرار متخد بصدق أي مسألة من مسائل الساعة الراهنة حتى ولو كانت غير ذات شأن كبير ظاهرياً، يكتسب أهمية حاسمة بالنسبة إلى الطبقة العاملة بأسرها. وإنما في مثل ذلك السياق أيضاً تصبح مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى البروليتاريا أن ترى حزبها قد تمثل بصورة واضحة وملمومة الفكر والعمل الملائمين حقاً لوضعها الطبقي.

ييد أن آنية الثورة تعني في الوقت نفسه أن غلبان المجتمع وانهيار بناء القديمة ما عادا وفقاً على البروليتاريا وحدها بل شملاً جميع طبقات المجتمع. وبالفعل يرى لينين أن المعيار الحقيقي للوضع الثوري هو «الآن تزيد الفئات الدنيا من المجتمع أن تعيش حسب الطريقة القديمة، وألا تستطع الفئات العليا أن تعيش حسب الطريقة القديمة»، وأن «الثورة غير ممكّنة ما لم تعرف الأمة تهز المستغلين والمستغلين على حد سواء». وكلما كانت الأزمة أكثر عمقاً، كانت حظوظ الثورة أكبر. ولكنها كلما كانت أكثر عمقاً وشاملة لفئات اجتماعية أوسع وأكثر، نجمت عنها حركات بدائية أكثر اختلافاً وتشابكاً وأصبحت علاقات القوة بين الطبقتين اللتين يرتبط بهما في خاتمة المطاف مصير الصراع، البورجوازية والبروليتاريا، أكثر إبهاماً وتقلباً. **إذا كانت البروليتاريا تزيد أن يعقد لها إزار النصر في هذا الصراع، فإن عليها أن تشجع وتدعم كل تيار يساهم في تعفن المجتمع البورجوازي، وعليها أن تسعى إلى أن تدمج بمجمل الحركة الثورية كل حركة بدائية مهما كانت مشوشة لأي فئة اجتماعية ومضطهدة.** واقتراح المرحلة الثورية يتميز أيضاً، فيما يتميز، بسعى جميع المستثنين في المجتمع القديم إلى الاتحاد مع البروليتاريا، أو على الأقل إلى التحالف معها. ولكن هنا على وجه التحديد يكمن خطر كبير. ذلك أن حزب البروليتاريا إذا لم يكن منظماً بصورة تضمن صحة اتجاه سياسته الطبقية، فإن هؤلاء الحلفاء، الذين يتکاثرون بصورة ملحوظة عندما ينشأ وضع ثوري، قد يجلبون الفوضى والبلبلة بدلًا من العون والمساعدة. إذ أنه لا نقاش في أن الفئات الاجتماعية المضطهدة الأخرى (من فلاحين أو بورجوازيين صغار أو مثقفين) لا تستهدف نفس الأهداف التي تضعها البروليتاريا نصب عينيها. والبروليتاريا - إذا كانت تعرف ما تريده وما يجب أن تريده من وجهة النظر الطبقية - تستطيع أن تضمن التحرر من المؤسّس الاجتماعي لا لنفسها فحسب بل أيضاً لسائر الفئات الاجتماعية. وإذا لم يكن الحزب واتفاقاً من الطريق التي يتوجب على الطبقة العاملة أن تسير فيه، هو المفترض فيه أن يكون الناقل المناضل لوعيها الطبقي، وإذا لم يكن طابعه البروليتاري مضموناً على صعيد التنظيم، فإن تلك الفئات الاجتماعية تتغزو حزب البروليتاريا وتحيد به عن طريقه. وهكذا فإن تحالف هذه الفئات، الذي يساعد على التعجيل بالثورة في حال وجود تنظيم حزبي بروليتاري ممتعن بوعي طبقي واضح، يمكن أيضاً أن يمثل خطراً داهماً على ذلك التنظيم بالذات.

ومن هنا فإن التصور اللينيني عن الحزب يشتمل بالضرورة على قطبين متطرفين: من جهة أولى انتقاء بالغ الصراامة لأعضاء الحزب من وجهة نظر الوعي الطبقي البروليتاري، ومن الجهة الثانية التأييد والتضامن الشاملان من قبل جميع المضطهدين والمستغلين في المجتمع الرأسمالي. وهكذا يجمع التصور اللينيني عن الحزب جمعاً جديلاً بين وحدانية الهدف الوعائية وبين شموليته، وبين قيادة الثورة باتجاه بروليتاري محض وبين الطابع العام القومي والأممي للثورة. أما التنظيم المنشفي فإنه يضعف هذه القطبين وبخلط بينهما ويحط من شأنهما إلى درجة يجعل معها منهما تسويات وحلولاً وسطاً، ويجمع بينهما بمثيل هذه الروح في قلب الحزب.

بالذات. إنه يفصل نفسه عن فئات واسعة من المستغلين (الفلاحين على سبيل المثال)، ولكنه يدرج في عداد الحزب جماعات ذات مصالح متباعدة كل النباین إلى درجة يصبح من المستحيل عليه معها أن يكون له خط واحد محدد في قضيـاـ الفـكـرـ والـعـلـمـ مـعـاـ. وهـكـذاـ فإنـ مـثـلـ هـذـاـ حـزـبـ، بـدـلاـ مـنـ أـنـ يـسـاعـدـ مـنـ خـلـالـ الـوـضـوـحـ الضـرـوريـ، عـلـىـ بـنـاءـ جـبـهـةـ لـهـاـ تـأـثـيرـهـاـ الـحـاسـمـ فـيـماـ يـتـعـلـقـ بـالـنـصـرـ النـهـائـيـ، جـبـهـةـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ صـدـ الـبـورـجـواـزـيـةـ، كـطـبـقـةـ صـدـ طـبـقـةـ، جـبـهـةـ غـيرـ ضـائـعـةـ الـمـعـالـمـ الـطـبـقـيـةـ فـيـ سـدـيـمـيـةـ الـطـبـقـاتـ الـمـتـصـارـعـةـ (ذلكـ أـنـ كـلـ وـضـعـ ثـورـيـ يـتـرـجـمـ عـلـىـ وـجـهـ التـحـديـ فـيـ الـانـقلـابـ السـدـيـمـيـ الـعـمـيقـ الـذـيـ يـشـمـلـ الـمـجـتمـعـ بـأـسـرـهـ)، بـدـلاـ مـنـ أـنـ يـجـمـعـ حـوـلـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ الـمـنـظـمـاتـ الـمـضـطـهـدـيـنـ، يـتـحـولـ هـوـ نـفـسـهـ إـلـىـ خـلـيـطـ مـشـوشـ مـنـ عـنـاصـرـ ذاتـ مـصالـحـ مـتـبـاعـةـ. ومـثـلـ هـذـاـ حـزـبـ لاـ يـنـوـصـلـ إـلـىـ الـقـيـامـ بـعـملـ مـاـ إـلـاـ مـقـابـلـ تـسـوـيـاتـ وـمـسـاوـيـاتـ دـاخـلـيـةـ، وـفـيـ هـذـهـ الـحـالـ سـيـجـدـ نـفـسـهـ بـالـضـرـورةـ وـقـدـ تـحـولـ إـلـىـ مـطـيـةـ ذـلـيـلـةـ لـلـجـمـاعـاتـ الـمـمـتـمـعـةـ بـقـدـرـ أـكـبـرـ مـنـ الـوعـيـ وـمـنـ النـشـاطـ وـالـفـعـالـيـةـ، أـوـ سـيـجـدـ نـفـسـهـ عـاجـزاـ عـنـ اـتـخـاذـ أـيـ مـوـقـعـ باـسـتـنـاءـ مـوـقـعـ التـأـمـلـ الـاسـلامـيـ تـحـاهـ الـاـحـدـادـ. إـذـنـ فـالـتـصـورـ الـلـيـبـيـيـ عنـ الـتـنـظـيمـ الـحـزـبـيـ يـنـطـوـيـ عـلـىـ قـطـعـةـ مـزـدـوـجـةـ مـعـ

الـنـزـعـةـ الـقـدـرـيةـ الـمـيـكـانـيـكـيـةـ: أـولاـ مـعـ النـزـعـةـ الـجـبـرـيـةـ الـتـيـ تـتـصـورـ أـنـ وـعـيـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ الـطـبـقـيـ هوـ نـتـيـجـةـ مـيـكـانـيـكـيـةـ لـوـضـعـهاـ الـطـبـقـيـ، وـثـانـيـاـ مـعـ النـزـعـةـ الـجـبـرـيـةـ الـتـيـ لـاـ تـرـىـ فـيـ الـثـوـرـةـ بـالـذـاتـ سـوـىـ النـتـيـجـةـ الـمـيـكـانـيـكـيـةـ لـلـقـوـيـ الـاـقـتـصـادـيـةـ الـتـيـ تـنـقـلـتـ مـنـ عـقـالـهـاـ قـضـاءـ وـقـدـراـ وـتـقـودـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ بـثـوـرـةـ شـبـهـ آـلـيـةـ إـلـىـ النـصـرـ عـنـدـمـاـ تـكـونـ الشـرـوـطـ الـمـوـضـوـعـيـةـ لـلـثـوـرـةـ قـدـ «ـنـضـجـتـ»ـ. ذـلـكـ أـنـ الـوـضـعـ الـثـوـرـيـ لـنـ يـنـشـأـ أـبـداـ إـذـاـ مـاـ كـانـ الـمـرـءـ يـتـصـورـ أـنـ عـلـيـهـ أـنـ يـنـتـظـرـ دـخـولـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ فـيـ الـصـرـاعـ الـحـاسـمـ بـرـمـتـهاـ وـبـوـعـيـ مـطـلـقـ. فـسـيـكـونـ هـنـاكـ دـوـمـاـ مـنـ جـهـةـ أـولـىـ فـئـاتـ بـرـولـيـتـارـيـةـ تـقـفـ مـوـقـعـ مـوـقـعـ الـتـنـظـيمـ الـحـزـبـيـ لـطـبـقـتـهـاـ بـالـذـاتـ وـقـدـ تـنـضـمـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ إـلـىـ مـعـسـكـرـ الـعـدـوـ (وـهـذـاـ الـاحـتـمـالـ يـزـدـادـ كـلـمـاـ كـانـ الـرـأـسـمـالـيـةـ أـكـثـرـ تـطـوـرـاـ). ثـمـ إـنـ مـوـقـعـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ وـحـزـمـهـاـ وـدـرـجـةـ وـعـيـهـاـ الـطـبـقـيـ لـيـسـ الـبـنـةـ، مـنـ الـجـهـةـ الـثـانـيـةـ، نـتـيـجـةـ جـبـرـيـةـ لـلـوـضـعـ الـاـقـتـصـاديـ.

وـغـنـيـ عـنـ الـبـيـانـ أـكـبـرـ وـأـفـضـلـ حـزـبـ فـيـ الـعـالـمـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـصـنـعـ»ـالـثـوـرـةـ». وـلـكـ الـطـرـيـقـ الـتـيـ تـبـارـدـ بـهـاـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ إـلـىـ الـعـمـلـ فـيـ وـضـعـ مـحـدـدـ تـنـعـلـقـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ بـالـوـضـوحـ وـالـقـوـةـ الـلـذـينـ يـكـونـ الـحـزـبـ قـادـراـ عـلـىـ إـضـافـهـمـاـ عـلـىـ أـهـدـافـهـ الـطـبـقـيـةـ. وـفـيـ عـصـرـ آـيـةـ الـثـوـرـةـ نـكـبـ الـمـشـكـلـةـ الـقـدـيمـةـ، الـمـتـعـلـقـةـ بـمـعـرـفـةـ مـاـ إـذـاـ كـانـ مـنـ الـمـمـكـنـ أـوـ مـنـ غـيـرـ الـمـمـكـنـ صـنـعـ الـثـوـرـةـ، دـلـلـةـ جـدـيـدةـ كـلـ الـجـدـةـ. وـمـنـ هـنـاـ أـيـضـاـ تـتـحـولـ الـعـلـاقـاتـ بـيـنـ الـحـزـبـ وـالـطـبـقـيـةـ كـمـاـ تـتـحـولـ دـلـلـةـ الـمـشـكـلـاتـ الـتـنـظـيمـيـةـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـحـزـبـ وـلـمـجـمـلـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ. فـطـرـحـ الـمـسـأـلـةـ الـقـدـيمـةـ الـمـتـعـلـقـةـ بـمـعـرـفـةـ مـاـ إـذـاـ كـانـ مـنـ الـوـاجـبـ «ـصـنـعـ»ـ الـثـوـرـةـ يـعـنـيـ الفـصـلـ بـصـورـةـ مـتـشـنـجـةـ وـغـيـرـ جـدـلـيـةـ بـيـنـ حـتـمـيـةـ الـمـسـارـ الـتـارـيـخـيـ وـبـيـنـ نـشـاطـ الـحـزـبـ الـمـناـضـلـ. وـبـدـيـهيـ أـنـ إـذـاـ كـانـ «ـصـنـعـ»ـ الـثـوـرـةـ يـعـنـيـ إـخـرـاجـهـاـ بـصـورـةـ سـحـرـيـةـ مـنـ الـعـدـمـ، فـإـنـ الـمـرـءـ لـاـ يـسـتـطـعـ إـلـاـ أـنـ يـتـبـرـأـ مـنـ هـذـاـ «ـالـصـنـعـ». وـلـكـ نـشـاطـ الـحـزـبـ فـيـ عـصـرـ الـثـوـرـةـ يـعـنـيـ شـيـنـاـ مـخـتـلـفاـ كـلـ الـاـخـتـلـافـ. ذـلـكـ أـنـ إـذـاـ كـانـ الطـبـاعـ الـأـسـاسـيـ لـلـعـصـرـ ثـوـرـيـاـ فـيـ إـنـ الـوـضـعـ الـثـوـرـيـ قـابـلـ لـلـنشـوـءـ بـكـلـ حـدـتـهـ فـيـ كـلـ لـحظـةـ. وـبـنـدرـ أـنـ يـكـوـنـ فـيـ الـإـمـكـانـ تـحـدـيدـ لـحظـةـ نـشـوـئـهـ وـظـرـوفـ هـذـاـ النـشـوـءـ تـحـدـيدـاـ دـقـيـقاـ مـسـبـقاـ. وـلـكـ مـنـ الـمـمـكـنـ بـالـمـقـابـلـ تـحـدـيدـ الـمـيـوـلـ الـصـيـرـوـرـةـ الـثـوـرـيـةـ. وـإـنـمـاـ عـلـىـ أـسـاسـ هـذـاـ التـفـهـمـ الـتـارـيـخـيـ يـقـومـ الـمـبـادـيـ الـأـسـاسـيـ لـلـعـلـمـ الـمـنـاسـبـ عـنـدـمـاـ تـبـدـأـ الصـيـرـوـرـةـ الـثـوـرـيـةـ. فـإـنـمـاـ عـلـىـ أـنـ يـحـاـوـلـ التـعـجـيلـ بـإـنـضـاجـ نـشـاطـ الـحـزـبـ. فـعـلـيـ الـحـزـبـ أـنـ يـعـدـ الـعـدـةـ لـلـثـوـرـةـ، أـيـ يـتـوـجـبـ عـلـيـهـ مـنـ جـهـةـ أـولـىـ أـنـ يـحـاـوـلـ التـعـجـيلـ بـإـنـضـاجـ الـمـيـوـلـ الـمـفـصـيـةـ إـلـىـ الـثـوـرـةـ وـذـلـكـ عـنـ طـرـيـقـ عـمـلـ الـذـاتـيـ وـعـنـ طـرـيـقـ تـأـثـيرـهـ عـلـىـ عـمـلـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ وـعـلـىـ عـمـلـ سـائـرـ فـئـاتـ الـاـجـتـمـاعـيـةـ الـمـضـطـهـدـةـ، وـيـتـوـجـبـ عـلـيـهـ مـنـ الـجـهـةـ الـثـانـيـةـ أـنـ يـهـيـئـ الـبـرـولـيـتـارـيـاـ لـلـعـلـمـ الـضـرـوريـ فـيـ وـضـعـ ثـوـرـيـ حـادـ مـتـازـمـ عـلـىـ الصـعـيدـ الـأـيـدـيـولـوـجـيـ وـالـتـكـيـكـيـ وـالـمـادـيـ وـعـلـىـ صـعـيدـ الـتـنـظـيمـ فـيـ آـنـ وـاـحـدـ. وـعـنـدـنـ ذـلـكـ تـنـطـرـ الـمـسـائـلـ الـدـاخـلـيـةـ لـتـنـظـيمـ الـحـزـبـ مـنـ خـلـالـ مـنـظـورـ جـدـيـدـ. وـعـنـدـنـ ذـلـكـ تـصـورـهـ شـرـطـاـ مـسـيـقاـ لـلـعـلـمـ الـثـوـرـيـ (وـهـوـ التـصـورـ الـذـيـ كـانـ يـقـولـ بـهـ أـيـضـاـ كـاوـتـسـكـيـ)ـ تـصـورـاـ أـحـادـيـ الـجـانـبـ وـغـيـرـ جـدـلـيـ شـأنـهـ فـيـ ذـلـكـ شـأنـ تـصـورـ رـوـزـاـ لـوـكـسـمـبـوـرـغـ عـنـ الـتـنـظـيمـ بـوـصـفـهـ نـتـاجـ الـحـرـكـةـ الـثـوـرـيـةـ الـجـمـاهـيرـيـةـ. فـالـحـزـبـ الـذـيـ جـعـلـ وـظـيـفـتـهـ تـهـيـنـةـ الـثـوـرـةـ يـصـبـحـ فـيـ آـنـ وـاـحـدـ وـبـدـرـجـةـ مـتـمـاثـلـةـ مـنـ الـحـدـدـةـ. مـنـتـجاـ وـنـاتـجاـ، شـرـطـاـ مـسـيـقاـ وـثـمـرـةـ لـلـحـرـكـاتـ الـثـوـرـيـةـ الـجـمـاهـيرـيـةـ. ذـلـكـ أـنـ نـشـاطـ الـوـاعـيـ لـلـحـزـبـ يـقـومـ عـلـىـ أـسـاسـ الـاعـتـرـافـ بـالـضـرـورـةـ الـمـوـضـعـيـةـ لـلـتـنـطـورـ الـاـقـتـصـاديـ، وـتـنـمـيـزـهـ الـتـنـظـيمـيـ الـصـارـمـ يـتـحـرـكـ فـيـ نـطـاقـ الـتـفـاعـلـ الدـائـمـ المـثـمـرـ بـيـنـ نـضـالـ الـجـمـاهـيرـ وـبـيـنـ بـؤـسـهـ الـأـوـلـيـ. وـلـقـدـ شـارـفـتـ رـوـزـاـ لـوـكـسـمـبـوـرـغـ فـيـ أـحـيـانـ كـثـيـرـةـ عـلـىـ إـدـرـاكـ هـذـاـ التـفـاعـلـ. وـلـكـنـ غـابـ عـنـهـ الـعـنـصـرـ الـوـاعـيـ وـالـفـعـالـ الـذـيـ يـنـطـوـيـ عـلـيـهـ. وـمـنـ هـنـاـ كـانـ عـجـزـهـاـ عـنـ رـؤـيـةـ النـقـطـةـ الـمـرـكـبـةـ الـتـيـ يـمـثـلـهـاـ التـصـورـ الـلـيـبـيـيـ عنـ الـحـزـبـ، وـأـعـنـيـ وـظـيـفـةـ الـحـزـبـ فـيـ الـإـعـادـ وـالـتـهـيـئـةـ. وـمـنـ هـنـاـ أـيـضـاـ كـانـتـ أـخـطاـهـاـ

الـفـاضـحةـ حـوـلـ مـخـتـلـفـ الـمـبـادـيـ الـتـنـظـيمـيـةـ.

وـبـدـيـهيـ أـنـ الـوـضـعـ الـثـوـرـيـ بـالـذـاتـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـوـنـ نـتـيـجـةـ لـنـشـاطـ الـحـزـبـ. فـمـهـمـةـ الـحـزـبـ هيـ تـوـقـعـ الـاتـجـاهـ الـذـيـ سـيـاـخـذـهـ تـطـورـ الـقـوـيـ الـاـقـتـصـاديـ الـمـوـضـعـيـةـ وـتـوـقـعـ الـمـوـقـعـيـةـ الـمـوـضـعـيـةـ الـعـالـمـةـ أـنـ تـقـفـهـ مـنـ خـلـالـ تـلـكـ الـأـوـضـاعـ الـنـاشـئـةـ. وـبـدـلـلـةـ هـذـاـ تـوـقـعـ يـنـبـغـيـ عـلـىـ الـحـزـبـ أـنـ يـهـيـئـ الـجـمـاهـيرـ الـبـرـولـيـتـارـيـةـ بـقـدـرـ الـإـمـكـانـ لـلـتـطـورـاتـ الـقـادـمـةـ وـأـنـ يـهـيـئـهـاـ لـمـصـالـحـهـ بـدـلـلـةـ هـذـاـ الـمـسـتـقـيـلـ عـلـىـ الصـعـيدـ الـفـكـرـيـ وـالـمـادـيـ وـالـتـنـظـيمـيـ. وـصـحـيـحـ أـنـ الـأـحـدـاثـ وـالـأـوـضـاعـ الـتـيـ تـنـجـمـ عـنـ ذـلـكـ هـيـ نـتـاجـ الـقـوـيـ الـاـقـتـصـاديـ الـفـاعـلـةـ فـيـ الـإـنـتـاجـ الـرـأـسـمـالـيـ، تـلـكـ الـقـوـيـ الـتـيـ تـلـعـنـ عـنـ نـفـسـهـ بـشـكـلـ أـعـمـىـ وـتـحـتـ ظـاهـرـ الـقـوـانـيـنـ الـطـبـيـعـيـةـ، وـلـكـنـ هـنـاـ أـيـضـاـ لـاـ تـجـريـ الـأـمـورـ بـصـورـةـ مـيـكـانـيـكـيـةـ وـجـبـرـيـةـ. فـلـقـدـ أـمـكـنـ لـنـاـ أـنـ نـرـىـ مـنـ خـلـالـ مـثـالـ اـخـتـلـالـ الـتـنـظـيمـ الـاـقـتـصـاديـ لـلـإـقـطـاعـ الـزـرـاعـيـ فـيـ رـوـسـيـاـ أـنـ صـيـرـورـةـ الـانـتـلـالـ الـاـقـتـصـاديـ هـيـ بـالـتـأـكـيدـ نـتـاجـ ضـرـورـيـ لـلـتـنـطـورـ الـرـأـسـمـالـيـ وـأـنـ نـتـائـجـهـاـ مـنـ وـجـهـ الـنـظـرـ الـطـبـقـيـ، أـيـ التـشـكـلـاتـ الـطـبـقـيـةـ الـجـدـيـدةـ الـنـاجـمـةـ عـنـهـاـ، لـاـ يـمـكـنـ تـوـقـعـهـاـ وـالـتـبـيـؤـ بـهـاـ بـدـقـةـ بـالـإـسـتـنـادـ

إلى تلك الصيرورة ذاتها وبمعزل عن كل عامل آخر، وبالتالي لا يمكن إرجاعها إلى تلك الصيرورة بصورة ميكانيكية. الواقع أن هذه النتائج منوطه بالسياق الذي ستثير فيه إلى حيز الوجود. ومصير المجتمع برمته، المجتمع الذي تخلق عناصره تلك الصيرورة، هو اللحظة الحاسمة في نهاية المطاف، في الاتجاه الذي ستأخذه تلك النتائج. ولكن الأعمال الطبقية تلعب في هذا السياق الشمولي دورا حاسماً أسواء كانت بدائية وعفوية أم موجهة بوعي. وكلما تعرض المجتمع إلى انقلاب أعمق، وكلما كفت بناته «السوية» عن ممارسة وظيفتها على الوجه الصحيح المألف، وكلما اشتد اختلال توازنه الاجتماعي - الاقتصادي، وباختصار كلما نشأ وضع أكثر ثورية، كان دور الأعمال الطبقية أبعد مدى وأنفذ تأثيراً. والاستنتاج الواجد استنتاجه من هذا هو أن التطوير الإجمالي للمجتمع في العصر الرأسمالي لا يتيح في مساره خططاً مستقيماً حتّمياً، بل يأتي نتيجة للعمل المشترك والمتدخل لتلك القوى في إطار الكلية الاجتماعية، نتيجة للأوضاع التي يمكن فيها أن يتحقق ميل محدد، شريطة الصحة في فهم الوضع والذكاء في انتهاز الفرص التي يتيحها. بيد أن تطور القوى الاقتصادية، التي أفضت ظاهرياً إلى هذا الوضع بصورة لا تقاوم، لا يتيح البتة في اندفاعه نفس مساره السابق، وإذا حدث ولم تنتهز فرصة هذا الوضع ولم تستخلص نتائجه فإن ذلك المسار ينقلب في غالب الأحيان إلى عكسه ونقضيه (فلتحتليل الوضع في روسيا في تشرين الثاني 1917 فيما لو لم يستول البلاشفة على السلطة ولم ينجزوا الثورة الزراعية على الوجه المطلوب. ومؤكّد أن الحل «البروسي» للمشكلة الزراعية ما كان مستبعداً نهائياً في هذه الحال في ظل نظام مناهض للثورة ولكن متصل، بالمقارنة مع الفيصرية، بصفات الرأسمالية الحديثة).

والحق أنت لا تستطيع أن تفهم حق الفهم تنظيم حزب البروليتاريا إلا عندما تعرف السياق الذي يتوجب على هذا الحزب أن يعمل فيه. فنقطة ارتکاز ذلك التنظيم هي المهام التاريخية الضخمة التي تطرحها مرحلة أصول الرأسمالية على البروليتاريا، والمسؤوليات الضخمة التي تفرضها هذه المهام على الفئة القيادية الواعية من البروليتاريا على نطاق التاريخ العالمي بأسره. ويتجوّب على الحزب الذي يمثل مصالح البروليتاريا برمتها (والتأليي مصالح جميع المضطهدّين ومستقبل الإنسانية)، وانطلاقاً من معرفة كلية المجتمع، أن يجمع في ذاته جميع التناقضات المعبّرة عن المهام المفروضة من قِبَل مركز الكلية الاجتماعية بالذات. ولقد أوضحتنا فيما تقدم أن انتقاء أعضاء الحزب على أساس من الصراامة القصوى من حيث درجة الوعي الظبيقي والإخلاص المطلق لقضية الثورة يجب أن يقتربن بالاندماج الكامل للحزبيين في حياة الجماهير الموجعة والمكافحة. وكل محاولة لإنجاز شق واحد من هذين المطلبيين المترابطين لابد أن تنتهي بتحجر عصبي للجماعات التي تتّالف حتى من ثوريين أصيلين مخلصين (وهنا يكمّن أساس النضال الذي خاضه لينين ضد مرضي البيسارية، ابتداءً من الأوتزفية⁽²⁾ ووصولاً إلى الحزب الشيوعي العمالي الألماني وغيرها). ذلك أن صراامة هذه التطلبات من أعضاء الحزب ليست سوى وسيلة لنوعية محمل الطبقة العاملة (ومن ثم جميع الفئات الاجتماعية التي تستغلها الرأسمالية) بمصالحها الحقيقية وبكل ما هو الأساس الحقيقي لأعمالها اللاواعية وأفكارها ومشاعرها المبهمة.

ولكن الجماهير لا تعي مصالحها إلا في العمل، في النضال الذي لا تكفّ أسمسه الاجتماعية - الاقتصادية عن التبدل والذي تحول فيه شروط النضال ووسائله بلا انقطاع. وحزب البروليتاريا القائد لا يستطيع أن يؤدي رسالته حقاً إلا إذا سبق دائماً بخطوة واحدة الجماهير المناضلة ليلتها على الطريق. بيد أن عليه ألا يسبّقها دوماً سوى بخطوة واحدة حتى يبقى دوماً على رأس كفاح الجماهير. إذن فوضوح الرؤية النظرية ليس بذى قيمة بالنسبة إليه إلا إذا لم يحد نفسه بصحّة النظرية وحدها بوجه عام، أي إلا إذا جعل النظرية تتألق ويعلو نجمها من خلال التحليل العيني للموقف العيني، والا إذا كانت الصحة النظرية لا تعبّر إلا عن مضمون الموقف العيني. إذن فعلى الحزب أن يملك من جهة أولى الوضوح النظري والحرزم الضروري للاستمرار في الطريق الصحيح بالرغم من تقلب الجماهير وتحت خطر الانزعاي عنها مؤقتاً، وعليه من الجهة الثانية أن يبقى مننا ومنفتحاً ليستخلص الدروس من كل تظاهرة تصدر عن الجماهير مهمماً تكن مشوشة مبهومة وليكشف للجماهير الإمكانيات الثورية العاجزة عن رويتها بنفسها.

وإنه ليستحيل على الحزب أن يتكيف على هذا النحو مع حياة المجموع من دون التقيد الصارم بالانضباط الحربي. وهو إذا لم يكن قادراً على تحقيق التلاويم الفوري بين معرفته النظرية وبين الوضع الدائم التحول، فإنه يبقى متّاخراً يلهث وراء الأحداث، وبدلاً من أن يكون قادراً على بecome مقوداً، وتنقطع صلته بالجماهير، ويختل تنظيمه. ومن هنا لا بد أن يكون التنظيم قادراً على العمل بأعلى درجة من الحزم والصرامة حتى يكون في وسعه حين يؤون الأوأن أن يحول تلك القدرة على التلاويم إلى حقيقة واقعة. ولكن هذا يعني في الوقت نفسه أن مطلب المرونة هذا يجب أن يطبق أيضاً وبصورة دائمة على التنظيم نفسه. فالشكل التنظيمي الذي كان مقيداً لمواجهة أهداف محددة في وضح محدد يمكن أن يصبح بكل سهولة عقبة وعائقاً في شروط نضالية مختلفة.

ذلك أن من ماهية التاريخ بالذات أن ينتج **الجديد** دوماً. وهذا الجديد لا يمكن توقعه وحساب حسابه مقدماً بالاعتماد على نظرية تدعّي لنفسها المعصومية، وإنما ينبغي تعرّفه في مجرى النضال من تظاهراته الأولى كما ينبغي العمل على التقدم به إلى مستوى الوعي الواضح. وليس من مهمة الحزب أن يفرض على

⁽²⁾ تيار بشفي متطرف في يساريته الشكلية ومناهض بشكل مسبق ومطلق للعمل العلني والمشروع. (المغرب).

الجماهيري نمطاً من السلوك جرى تحديده وإنشاؤه في عالم المجرد، بل إن مهمته على العكس أن يتعلم على الدوام من نضالات الجماهير ومن طرائقها كفاحها. ولكن عليه في الوقت الذي يعمل فيه على تهيئة الأعمال الثورية القادمة أن يكون فعالاً، حتى أثناء دراسته لسلوك الجماهير. إن عليه أن ينقل إلى مستوى الوعي ما ابتكرته الجماهير عفويًا بفضل غريزتها الطبقية السليمة وأن يربطه بكلية النضالات الثورية. عليه، على حد تعبير ماركس، أن يفسر للجماهير عملها بالذات، وليس ذلك ليكفل الاستمرار لتجارب البروليتاريا الثورية فحسب، بل أيضًا ليحيط بوعي التطور اللاحق لهذه التجارب. إن على التنظيم أن يندمج كأداة في مجموع تلك المعارف وتلك الأعمال الناجمة عنها. وهو إذا لم يفعل ذلك فإنه سيتعرض للنفسخ والانحلال بفعل تطور الأشياء التي لم يفهمها ولم يسيطر عليها بتالي. وهذا ما يفسر أن **كل نزعة دوغمانية في ميدان النظرية وكل تحجر على صعيد التنظيم يرتدان بأفجح الأضرار على الحزب**. وذلك راجع على حد ما قال لينين إلى أن «كل شكل جديد من النضال، مرتبط بمحاذفات جديدة وتصحيات جديدة، يخلّ حتماً بتنظيم المنظمات غير المستعدة لهذا الشكل الجديد من الكفاح». وواجب الحزب أن يختار هذا الطريق بملء الحرية والوعي، وأن يعيد تنظيم صفوفه قبل أن يدهمه خطر البلبلة والفووضى التنظيمية، وأن يمارس تأثيره بفضل هذا التحول على الجماهير من خلال تثقيفها وتشجيعها.

ذلك أن التكتيك والتنظيم ليسا سوي وجهين ومظاهرتين من كل غير قابل للانقسام. **ومن غير الممكن الوصول إلى نتائج واقعية إلا باعتمادهما كليهما معاً**. وعندما يريد الحزب الوصول إلى نتائج محددة فإن عليه أن يبقى منطقياً ومرناً في آن واحد، أن يتمسك بجزم المبدأ وأن يظل في الوقت نفسه منفتحاً للتغيرات اليومية. وليس ثمة على صعيد التكتيك وعلى صعيد التنظيم على حد سواء من شيء يبدو صالحًا أو طالحاً في حد ذاته. فهذه الفكرة أو تلك وهذا التدبير أو ذاك لا تتضح صحتهما أو خطئهما إلا من خلال علاقتهما بكل مصير الثورة البروليتارية. ولهذا كافح لينين على سبيل المثال، بعد الثورة الروسية الأولى، بصلابة واحدة أنصار التخلص من اللاشرعية بحجة أنها شكل عصبي وغير مجد، وأنصار اللاشرعية المطلقة النابذين لكل إمكانيات العمل الشرعي، ولهذا أيضًا صب ازدراهه الحانق بقدر متساو على الاستسلام الكلي للعمل البرلماني وعلى الرفض المبدئي المسبق للبرلمانية.

والواقع أن لينين لم يكن أبعد ما يكون سياسياً عن الطوبائية فحسب، بل كان أيضًا أبعد ما يكون عن التعلل بالأوهام بصفد عدة عصره البشرية. ولقد قال في المرحلة البطولية الأولى من الثورة البروليتارية المظفرة: «إننا نريد أن نبني الاشتراكية بواسطة رجال ترعرعوا في ظل الرأسمالية فأفسدتهم وشووهنهم ولكنها جعلتهم في الوقت نفسه ومرستهم على الكفاح». والمتطلبات الجسيمة التي تفرضها الفكرة الليبية عن التنظيم على الثوريين المحترفين هي في آن واحد أبعد ما تكون عن الطوبائية وعن سطحية الحياة اليومية وعن افتعال النزعة التجريبية الخالصة. إن التنظيم الليبيني ينتظمه جدلي، لأنه نتاج تطور تاريخي جدلي فحسب، بل أيضًا لأنه عامل هذا النطور الوعي وذلك بقدر ما يكون نتاج واقعه الذاتي ومنتجه معاً. **إن البشر يصنعون حزبهم بأنفسهم**، ومن هنا كانت حاجتهم إلى بلوغ درجة عالية من الوعي الظيفي ومن نكران الذات ليريدوا ويستطيعوا المشاركة في التنظيم. وهم لا يصبحون ثوريين محترفين حقيقين إلا في التنظيم وبالتنظيم. **واليعقوبي⁽³⁾** الذي يتحالف مع الطبقة الثورية يعطي الطبقة شكلها ووضوحها بجزمه وتصميمه وقدرته على العمل ومعرفته وحماسته. ولكن كيان الطبقة الاجتماعية والوعي الظيفي الذي ينجم عنه هما اللذان يحددان مضمون أعمال اليعقوبي ومعناها. إن عمله ليس عملاً من أجل الطبقة وبالوكالة عنها، بل هو نشاط الطبقة ذاتها في أوجهه. والحزب المدعو لقيادة الثورة البروليتارية لا ينبع وهو على أتم الاستعداد لأداء رسالته. **فالحزب هو الآخر ليس كائناً، وإنما يتكون، بصير حزباً. وصيورة التفاعل المثمر بين الحزب والطبقة تذكر، وإن على نحو مختلف، في العلاقات بين الحزب وأعضاء الحزب**. ذلك أن النظرية المادية التي تريد، كما يقول ماركس في «أطروحاته عن فيورياخ»، أن «يكون الناس نتاج الظروف والتربية، وأن يكون الناس المتبدلون وبالتالي نتاج ظروف أخرى وتربية مغایرة، تنسى أن الظروف تتبدل هي نفسها بفعل الناس وأن المربى يحتاج هو نفسه إلى تربية». والحق أن التصور الليبيني عن الحزب يمثل قطيعة حادة عنيفة مع **التيسيط الميكانيكي والجيري النزعة للماركسيّة**. إنه التحقيق العملي لطبيعتها الأكثر أصلالة ولميلولها الأكثـر عمـقاً. «إن الفلـاسـفة لم يـفـعـلـوا من شـيءـ سـوىـ أنـهـمـ فـسـرـواـ العـالـمـ بـأسـالـيبـ مـخـتـلـفـةـ،ـ والـحالـ أنـ المـطـلـوبـ الآـنـ تـحـوـيـلـهـ».

4 – الإمبريالية: الحرب العالمية وال الحرب الأهلية

هل دخلنا في مرحلة النضالات الثورية الخامسة؟ هل أزفت الساعة التي يتوجب فيها على البروليتاريا تحت طائلة زوالها هي بالذات - أن تؤدي رسالتها وتنجز تحويل العالم؟ ذلك أنه لا مراء في أن هذا القرار ليس مرهوناً بنضج البروليتاريا الإيديولوجي أو التنظيمي وحده إذا لم يكن ذلك النضج وذلك التصميم على الكفاح

⁽³⁾ الواقعية حزب من أحزاب الثورة الفرنسية، كان شديد الحماسة لها. واليعقوبية صفة تطلق اليوم على الثوري الذي نظر نفسه كلها للثورة. (المغرب)

نتيجة لوضع العالم الاجتماعي - الاقتصادي الموضوعي الذي يحفز على اتخاذ مثل ذلك القرار. وأيا يكن الحدث، سواءً أكان هزيمة أو نصراً، فإنه لا يصلح البتة لأن يحسم هذه المشكلة. بل لا يمكن أصلاً التقرير بأنه نصر أو هزيمة إذا ما جرى تقييم الحدث في ذاته وبمعزل عن غيره: فصلة الحدث المنفرد المنعزل بكلية التطور التاريخي - الاجتماعي هي وحدها التي تقرر ما إذا كان يمثل نصراً أو هزيمة على صعيد التاريخ العالمي.

ولهذا فإن المناظرة التي قامت في صفوف الاشتراكية - الديمقراطية الروسية (يوم كانت تضم المناشفة والبلاشفة على حد سواء) إبان الثورة الأولى لتصل إلى الذروة بعد هزيمة هذه الثورة، المناظرة التي كانت تستهدف معرفة ما إذا كان الواحظ عند الكلام عن الثورة تركيز الاهتمام على عام 1847 (قبل الثورة الخامسة) أو على عام 1848 (بعد هزيمة الثورة)، تتجاوز بالضرورة الإطار الضيق للمشكلات الروسية الحالصة. إذ أنه لا سبيل إلى الوصول إلى رأي قاطع بصدرها إلا إذا حلت المسألة المتعلقة بمعرفة الطابع الأساسي لعصرنا. وإنما في هذا الإطار وحده أيضاً يمكن الوصول إلى جواب محدد على تلك المسألة المحددة والروسية الحالصة المتعلقة بمعرفة ما إذا كانت ثورة 1905 ثورة بورجوازية أو بروليتارية وما إذا كان سلوك العمال الثوري والبروليتاري سلوكاً صحيحاً أو خاطئاً. ولكن مجرد طرح المسألة بمثل هذه الحدة منذ أيام الثورة الروسية الأولى يشير إلى الاتجاه الذي ينبغي البحث فيه عن جواب لها. ذلك أن الانفصال بين اليمين واليسار في الحركة العاملة يميل أكثر فأكثر، حتى خارج حدود روسيا، إلى أن يتخذ شكل مناقشة حول الطابع العام للعصر. مناقشة تستهدف معرفة ما إذا كانت بعض الظاهرات الاقتصادية التي تأخذ أكثر فأكثر طابعاً أشد بروزاً (تركز الرأسنامال، الأهمية المتعاظمة للرأسنامال المالي الكبير، الاستعمار، الخ) هي مجرد تدرجات كمية في تطور الرأسمالية «السوسي» أم أنها النذير بمجيء مرحلة رأسنامالية وإمبريالية جديدة؟ مناقشة لمعرفة ما إذا كان من الواحظ اعتبار الحروب التي راحت تتکاثر بشكل ملحوظ بعد مرحلة من السلم النسبي (حرب البوير، الحروب الإسبانية - الأمريكية والروسية - اليابانية، الخ) حروباً «عارضة» و«طارئة» أم علائم تنذر بمرحلة من حروب لن تتفاهم حدة وعنفاً وأخيراً مناقشة لمعرفة ما إذا كانت طرائق نضال البروليتاريا القديمة كافية لضمان حماية المصالح البروليتارية الطبقية إذا ما استجدت ظروف جديدة يدخل فيها تطور الرأسمالية في مرحلة جديدة؟ أي لمعرفة ما إذا الأشكال الجديدة للنضال الطيفي البروليتاري التي أعلنت عن ظهورها قبل الثورة الروسية وأثناءها (الإضراب الجماهيري السياسي، التمرد المسلح) هي أحداث تظل دلالتها محلية وخصوصية أو حتى «أخطاء» و«ضلالت» أم أنها المحاولات الفعوية الأولى التي باشرتها الجماهير مدفوعة بغريزتها الطبقية السليمة لتكييف عملها مع الوضع العالمي؟ إن الجواب العملي الذي أعطاه لينين لهذه السلسلة المتلاحمة من الأسئلة معروف، وهو يجد أوضح تعبير له في الواقعة التالية: فيعد سحق الثورة الروسية الأولى بفترة وجيزة، وفي الوقت الذي كان فيه المناشفة ما يزالون يغولون ويندون وينجحون بالائمة على العمال لأنهم «تجاوزوا حدودهم»، خاض لينين في مؤتمر شتوتغارت كفاحاً صلباً من أجل وضوح وجلاء مواقف الأهمية الثانية إزاء خطير الحرب العالمية الإمبريالية الداهم وحاول توجيه هذه المواقف باتجاه ما يجب فعله ضد تلك الحرب.

ولقد تمت الموافقة في مؤتمر شتوتغارت على التعديل الذي اقترحه لينين وروزا لوکسمبورغ ثم أعاد مؤتمراً كوبنهاغن وبال توكيده. وكان هذا معناه أن الأمممية الثانية قد أقرت رسمياً بخطر نشوب حرب عالمية إمبريالية قريبة وبواحظ البروليتاريا في أن تشن ضدها نضالاً ثورياً. إذن فمن الجلي أن لينين لم يكن وحيداً في هذا المضمار، كما لم يكن وحيداً عندما تعرف في الإمبريالية، من وجهة النظر الاقتصادية، مرحلة جديدة للرأسمالية. وقد اعترف اليسار بأسره، بل حتى بعض عناصر جناح الوسط واليمين من الأمممية الثانية، بوجود وقائع اقتصادية تقدم للإمبريالية أساسها. وقد حاول هيلفردينغ أن يصيغ نظرية اقتصادية عن هذه الظاهرات الجديدة، وتوصلت روزا لوکسمبورغ إلى بيان أن تعقيد اقتصاد الإمبريالية في مجمله هو نتيجة ضرورية لعملية إعادة الإنتاج في الرأسمالية، أي توصلت إلى أن تدمج الإمبريالية عضواً بنظرية المادة التاريخية عن التاريخ والى أن تقدم أساساً اقتصادياً عيناً لـ«نظرية الانهيار». ومع ذلك عندما وجد لينين نفسه وحيداً مع وجهة نظره في آب 1914⁽⁴⁾ - وفيما بعد أيضاً - فإن ذلك لم يكن من قبيل الصدفة. وانعزالة غير قابل للتفسير بحجج نفسية أو أخلاقية تقول بأن «الجين» هو الذي كان وراء استسلام وخيانة ذلك العدد الكبير من قادة الأمممية الثانية الذين حكموا في السابق نفس حكم لينين الصائب على الإمبريالية. كلا. **مفاوضات شتى التيارات الاشتراكية في آب 1914 كانت نتيجة عينية و مباشرة للسلوك النظري والتكتيكي الذي كانت تلك التيارات قد تبنّيه حتى ذلك الحين.**

إن التصور الليبيني عن الإمبريالية هو من جهة أولى كشف نظري مرموق، ومن الجهة الثانية، ومهما بدت هذه الملاحظة متناقضه ظاهرياً، تصور لا ينطوي، من وجهة النظر الاقتصادية الحالصة، إلا على النزد اليسير من الواقع الجديد. إن التصور الليبيني عن الإمبريالية يستند في أكثر من نقطة ارتباك واحدة على تحليلات هيلفردينغ، ولا يمكن أن يصمد من وجهة النظر الاقتصادية الحالصة - ومن حيث عمق الفكر وعظمة التصور - للمقارنة مع إنجاز روزا لوکسمبورغ في تطويرها المرموق لنظرية ماركس عن إعادة الإنتاج. بيد أن تفوق لينين يكمن في أنه عرف - وهنا يتجلّى كشفه النظري الفذ - كيف يربط بصورة عينية وكاملة نظرية الإمبريالية الاقتصادية بجميع فضايا الساعة الراهنة السياسية و يجعل من مضمون الاقتصاد في تلك المرحلة

⁽⁴⁾ في 4 آب 1914 خان فرسان الأمممية الثانية مبادئ الماركسية عندما قرروا الموافقة على اعتمادات الحرب الإمبريالية المعروفة باسم الحرب العالمية الأولى. (المغرب)

الجديدة الخيط الهادي لجميع الأعمال العينية في العالم المنظم على ذلك النحو. ولهذا نبذ على سبيل المثال بعض تصورات الشيوعيين البولنديين المتطرفة في نزعتها اليسارية بوصفها تصورات منتمية إلى «المدرسة الاقتصادية الإمبريالية». وهنا أيضاً تكمن ذروة نضاله ضد تصور كاوتسكي عن «ما فوق الإمبريالية»، وهي النظرية التي كانت تضع آمالها في إنشاء تروست سلمي عالمي للرأسمال لا تعود معه الحرب العالمية مسارة محظوماً أو حتى «سوياً»، وذلك من خلال محاولة كاوتسكي فصل اقتصاد الإمبريالية عن سياستها. وصحح أن نظرية روزا لوكمببورغ (وابانيكوك وغيرهما من ممثلي اليسار) عن الإمبريالية ليست نظرية اقتصادية خالصة بالمعنى الضيق للكلمة، فالجميع، وروزا لوكمببورغ بوجه خاص، يسلطون الضوء على تلك اللحظات من الاقتصاد الإمبريالي التي يأخذ فيها هذا الاقتصاد بالضرورة منعطفاً سياسياً (استعمار، صناعة تسليح، الخ). بيد أن هذه العلاقة لا تصبح عينية، أي أن روزا لوكمببورغ تبين بصورة فذة لا نظير لها أن الانتقال إلى الإمبريالية، أي إلى عصر غزو أسواق المستعمرات والمواد الأولية وما يتبعه هذا الغزو من إمكانيات لتصدير الرأسمال الخ، قد أصبح محظوماً بحكم صيغة التراكم، وأن ذلك العصر، الذي يمثل المرحلة الأخيرة من الرأسمالية، يجب أن يكون عصراً من الحروب العالمية. وبذلك تكون روزا لوكمببورغ قد صاغت نظرية **العصر بكامله**، نظرية الإمبريالية الحديثة بوجه عام. ولكنها لم تنجح في ربط هذه النظرية بمتطلبات الساعة العينية، وكراستها الممهورة بإمضاء «يونيوس» ليست البتة، في قسمها العيني، التتمة الضرورية لـ«تراكم الرأسمال». والصحة النظرية التي حاكمت بها ذلك العصر بكامله لا تحول لديها إلى وعي واضح لقوى الفاعلة العينية التي من واجب النظرية марكسية أن تقدرها حق قدرها وأن تستخدمنها على نحو ثوري.

بيد أن تفوق لينين بصدق هذه النقطة غير قابل البتة للتفسير بصفة عامة على شاكلة «العقبة السياسية» و«النظرية العملية الثاقبة» الخ. وإنما هو بالأحرى **تفوق نظري محض** في تقييم **الصيغة العامة**. ذلك أننا لا نجد في حياته قراراً عملياً واحداً لم يكن النتيجة الموضوعية والمنطقية لموقفه النظري. وإذا كان المحور الأساسي الذي يقوم عليه هذا الموقف هو المطالبة بالتحليل العيني للوضع العيني، فإن العقول غير الجدلية هي وحدها التي ترى في هذا المبدأ مجرد مظهر من مظاهر أساسية «الواقعية النزعية». والحق أن **التحليل العيني للوضع العيني** لا يتعارض في نظر الماركسي مع النظرية «الخالصة»، بل على النقيض من ذلك: **فهذا التحليل هو نقطة الذروة في النظرية الأصلية**، النقطة التي تجد فيها النظرية إنجازها الحقيقي وتتحول إلى ممارسة.

إن تفوق لينين يعود إلى أنه كان بين جميع خلفاء ماركس أقل من تشوهت رؤيته بفعل المقولات الصنمية لمحيطه الرأسمالي. ذلك أن التفوق الحاسم للاقتصاد الماركسي على جميع المذاهب الاقتصادية التي سبقته وتلته يمكنني في أنه أفلح بفضل منهجه، وحتى إزاء المسائل الأكثر تعقيداً التي لا يعود معها مهرب في الظاهر من الاستجاجاد بالمقولات الاقتصادية الخالصة، الطبقات (التي تعبّر هذه المقولات عن وجودها الاجتماعي) من خلال صيغة تطورها. (فلنفكر بالفارق بين الرأسمال الدائم والرأسمال المتحول من جهة والتباين الكلاسيكي بين الرأسمال الثابت والرأسمال المتداول من جهة ثانية. وقد سبق لماركس بصياغته لمشكلة فضل القيمة أن كشف عن الانقسامات الطبقية القائمة بين البورجوازية والبروليتاريا. وزيادة الرأسمال الدائم تظهر هذه العلاقة من خلال المجموع الديناميكي لصيغة تطور المجتمع بأسره وتزيح النقاب عن صراع شتى الجماعات الرأسمالية على تقاسم فضل القيمة).

إن نظرية الإمبريالية هي لدى لينين نظرية القوى الطبقية العينية التي تفلتها الإمبريالية من عقالها وتجعلها قادرة على العمل والفعل أكثر منها نظرية التكوين الضروري اقتصادياً لتلك القوى وحدوده الاقتصادية كما هو شأنها لدى روزا لوكمببورغ. إنها نظرية **الوضع العالمي العيني الذي خلفته الإمبريالية**. وعندما يحلل لينين ماهية الرأسمالية الاحتكارية فإن ما يحظى باهتمامه الأول الوضع العالمي العيني وما ينجم عنه من تبدلات في وضع المجتمع الظيفي، أي الطريقة التي قسمت بها الدول الاستعمارية الكبيرة العالم، الطريقة التي تتتطور بها التمايزات داخل البورجوازية والبروليتاريا مع حركة تركز الرأسمال (فتنة أصحاب الإيرادات الطفifieة والأستقراطية العمالية الخ)، وبوجه خاص الطريقة التي يتحكم بها تطور الرأسمالية الاحتكارية الداخلي، بسبب تفاوت وتيرته من قطر إلى آخر، بالتقادم والبلى على الأشكال السلالية المؤقتة لتقاسم «مناطق النفوذ» وغيرها من التسويات، ويفؤد إلى نشوب خصومات ومنازعات جديدة لا سبيل إلى حلّها إلا بالعنف، أي بالحرب.

ففي الوقت الذي تتحدد وتتوضح فيه ماهية الإمبريالية بوصفها رأسمالية احتكارات، وماهية الحرب كتطور ضروري وتعبير عن الميل إلى تركز أكبر وإلى الاحتكار المطلق، تتوضح أيضاً التمايزات داخل المجتمع بدلاله هذه الحرب. ومن الوهم والسداحة التصور مع كاوتسكي بأن في الإمكانيات تعيئة تلك الفئات من البورجوازية التي لا تجد نفسها «معنية» مباشرة بالإمبريالية والتي لم «تبتلعها» الإمبريالية ضد الحرب والإمبريالية. ذلك أن التطور الاحتكاري يجر في ركابه البورجوازية كلها ويجد سيندا له لا في أوساط البورجوازية الصغيرة فحسب، وهي الطبقة المتذبذبة على الدوام، بل أيضاً في بعض أوساط البروليتاريا (وان بصورة مؤقتة فقط). ولكن ليس من الصحيح الزعم، على حد ما يفعل المشككون والرببيون المحترفون، أن البروليتاريا الثورية ستعزل نفسها بنفسها عن المجتمع إذا ما نبذت الإمبريالية نبذًا قاطعاً باتاً. فتطور المجتمع الرأسمالي هو دوماً متناقض وحركته أبداً متلاحقة. وللمرة الأولى في التاريخ تخلق الرأسمالية الاحتكارية اقتصاداً عالمياً بكل ما في الكلمة من معنى. وال الحرب الإمبريالية الخاصة بالرأسمالية الاحتكارية هي وبالتالي الحرب العالمية الأولى بالمعنى

الدقيق للكلمة. وهذا يعني قبل كل شيء أن الأمم المضطهدة والمستغلة من قبل الرأسمالية تجد نفسها لأول مرة في التاريخ غير وحيدة منعزلة في نضالها ضد ماضيها، بل منفادة بوجودها بالذات في دوامة الحرب العالمية. فالسياسة الاستعمارية المتقدمة للرأسمالية لا تستغل الشعوب المستعمرة عن طريق نهب ثرواتها وخيراتها فحسب كما كانت الحال في مطلع العصر الرأسمالي، ولكنها تقلب **رأساً على عقب** في **الوقت نفسه البنية الاجتماعية لتلك الشعوب وتجعلها رأسمالية**. وليس الهدف من ذلك بالطبع سوى تشديد الاستغلال وتعديله (تصدير رؤوس الأموال، الخ)، ولكن نتيجته المحتومة التي لا دخل لإرادة الإمبريالية فيها هي بداية التطور البورجوازي داخل البلدان المستعمرة، والتنمية الأيديولوجية الضرورية لهذا هي **بداية النضال من أجل الاستقلال القومي**. ومما يساعد على التعجيل بهذه الصيورة أن الحرب الإمبريالية تجند كل احتياطي الرجال الشاغرين في البلدان الإمبريالية وتجر البلدان المستعمرة إلى الحرب بصورة نشيطة من جهة أولى وتشجع تصنيعها السريع من الجهة الثانية، وبذلك تعجل بتطورها أيديولوجياً واقتصادياً.

بيد أن وضع البلدان المستعمرة يمثل حالة مشتطة، قصوى، من العلاقات بين الرأسمالية الاحتكارية وبين أولئك الذين تستغلهم. والانتقال التاريخي من عصر إلى آخر لا يتم أبداً بصورة ميكانيكية: فننمط الإنتاج الجديد لا يمكن أن يولد وأن يؤثر على مجرد التاريخ لمجرد أن ننمط الإنتاج السابق الذي تم تجاوزه قد أدى في كل مكان رسالته في تحويل المجتمع. فأنماط الإنتاج التي يختلف بعضها بعضها من خلال تجاوزه والأشكال الاجتماعية والانقسامات الطبقية المطابقة لأنماط الإنتاج تلك تظهر في التاريخ متداخلة متصالحة متعارضة. وهكذا فإن التطورات التي تبدو متشابهة من زاوية مجردة (على سبيل المثال الانتقال من الإقطاعية إلى الرأسمالية) ترتبط بصورة مختلفة كل الاختلاف بالكلية التاريخية-الاجتماعية، بحكم السياق التاريخي المختلف كل الاختلاف الذي تتم فيه، وبذلك تصبح لها دلالة ووظيفة جديدة كل الجدة.

لقد تجلت الرأسمالية الصاعدة كعامل يساعد على ولادة الأمم. وقد استطاعت بعد نضالات ثورية قاسية، وانطلاقاً من التعدد الموروث عن العصر الوسيط في السيادات الإقطاعية الصغيرة، أن تحول الجزء الرأسمالي الأكثر تقدماً من أوروبا إلى أمم كبيرة. وقد كان النضال في سبيل الوحدة الألمانية والإيطالية آخر تلك النضالات الثورية موضوعياً. ولكن إذا كانت الرأسمالية قد استمرت في التطور في تلك الدول إلى حد التحول إلى رأسمالية احتكارية إمبريالية، وإذا كانت قد بدأت تسير في الاتجاه نفسه في بعض البلدان المتاخرة (روسيا واليابان)، فهذا لا يعني أنها فقدت وظيفتها في توليد أمم أخرى في سائر أنحاء العالم. بل على العكس من ذلك تماماً ! **فالتطور الرأسمالي المتقدم بلا توقف قد ولد حركات قومية لدى جميع الشعوب الأوروبيية التي كانت ما تزال «بلا تاريخ».** ولكن نضالات هذه الشعوب في سبيل «تحريرها القومي» ما عادت مجرد نضالات ضد الإقطاع أو الحكم المطلق الإقطاعي الداخلي، وبالتالي ما عادت تقدمية بصورة تلقائية وتحتية، بل صار محتماً عليها أن تأخذ مكانها في **سياق التناقض الإمبريالي بين الدول العالمية الكبرى**. ودلائلها التاريخية وتقيمها مرهونات بالوظيفة الموضوعية التي توديها في إطار ذلك السياق العيني.

لقد سبق لماركس أن أدرك بوضوح كامل أهمية هذه المسألة. وقد كانت بالتأكيد في عصره مشكلة إنجلزية في جوهرها، أعني مشكلة العلاقات بين إنكلترا وإرلندا. ويلح ماركس كبير الإلحاح على أن «الشرط المسبق لتحرر الطبقة العاملة الإنكليزية، بغض النظر عن دواعي العدالة الأممية، يمكن في استبدال الوحدة المدعومة بالقوة، أي عبودية إرلندا، بتحالف حر وعلى أساس من المساواة إذا كان ذلك ممكناً، أو بانفصال كامل إذا لم يكن منه مناص». لقد أدرك ماركس تمام الإدراك أن استغلال إرلندا هو من جهة أولى ورقة رابحة حاسمة بالنسبة إلى قوة الرأسمالية الإنكليزية التي كانت وحدها المتمتعة بطاقة احتكاري في ذلك العصر، وأن موقف الطبقة العاملة الإنكليزية المبهم والمشوش من هذه المسألة هو من الجهة الثانية علة انقسام المضطهدين وصراع المستغلين ضد المستغلين بـ«لا من أن يجمعهم ويوحدهم النضال ضد مستغليهم المشتركون». لقد فهم ماركس إذن أن النضال في سبيل تحرر إرلندا القومي هو وحده القادر على تشكيل جبهة فعالة حقاً في نضال البروليتاريا الإنكليزية ضد البورجوازية الإنكليزية.

وتصور ماركس هذا لم يبق عديم التأثير في الحركة العاملة الإنكليزية في ذلك العصر فحسب، بل إنه لم يأخذ طريقة أيضاً إلى نظرية الأممية الثانية وممارستها. وهنا أيضاً كان مقدراً للينين أن يبعث الحياة من جديد في تلك النظرية، ولكنها كانت حياة أنشطة بكثير وأكثر عينية بما لا يقاس مما كان متاحاً لماركس نفسه أن يفعله. ذلك أن الواقع التاريخي الأممي هو الذي جعل منها مسألة راهنة، وهذه فإنها لم تبق عند لينين مجرد نظرية، بل تحولت إلى ممارسة قبل كل شيء. والحقيقة أن ما من أحد منا يستطيع أن يتتجاهل أن المشكلة الهائلة التي نواجهها هنا، وأعني ثورة جميع المضطهدين على النطاق العالمي لا ثورة العمال وحدهم، هي نفس المشكلة التي ما ونى للينين عن اعتبارها من البداية **جوهر المسألة الزراعية في روسيا**، بخلاف رأي الناروودنيين والماركسيين الشرعيين والاقتصاديين الآخرين. والمسألة تتعلق في جميع هذه الحالات بما أطلقت عليه روزا لوکسمبورغ اسم السوق «الخارجية» للرأسمالية، أي السوق غير الرأسمالية، سواء أكانت واقعة داخل الحدود السياسية أم خارجها. فالرأسمالية المتعددة لا تستطيع من جهة أولى أن تبقى على قيد الحياة بدون تلك السوق، ولكن وظيفتها الاجتماعية من الجهة الثانية هي قلب البنية الاجتماعية الأصلية لهذه السوق وتحويل هذه الأخيرة إلى سوق رأسمالية، وعلى وجه التحديد سوق رأسمالية «داخلية»، الأمر الذي يولد لديها ميلاً إلى الاستقلال. إن العلاقات جدلية هنا أيضاً. ولكن ما لم تجده روزا لوکسمبورغ، انطلاقاً من هذا المنظور التاريخي العظيم وال حقيقي، هو الطريق المفضي إلى تسوية عينية للمسائل العينية

المترتبة بالحرب العالمية. فقد بقيت المسألة لديها مجرد منظور تاريخي، مجرد طريقة عظيمة وحقيقة في وصف العصر وتمييزه، العصر المنظور إليه في كليته. وإنما إلى لينين يعود الفضل في تخطي النظرية إلى الممارسة، وهذه الخطوة تعني أيضاً وهذا ما لا يجب أبداً أن ننساه، **تقدماً نظرياً** لأنها خطوة تقود من المجرد إلى العيني.

إن الانتقال إلى العيني انطلاقاً من التقييم الصحيح على صعيد التجريد للواقع التاريخي الراهن، انطلاقاً من البرهان على الطابع الثوري المجمل لكل المرحلة الإمبريالية، يكتسب كل حده مع مسألة الطابع الخاص لهذه الثورة. وأحد فتوح ماركس النظرية الكبرى أنه ميز دقيق التمييز بين الثورة البورجوازية والثورة البروليتارية. وقد كان لهذا التمييز، إزاء أوهام معاصريه وعدم نظرتهم، أهمية حاسمة من وجهاً النظر العملية والتكتيكية، وقد منهجاً لا نظير له في الكشف عن العناصر الجديدة حقاً والبروليتارية حقاً في حركات العصر الثورية. **بيد أن هذا التمييز تحول وتحجر في الماركسية المبتذلة في شكل ميكانيكي النزعة**. وقد كانت النتيجة العملية لهذا الفصل لدى الانهاريين تعنيماً دوغمائياً انطلاقاً من الملاحظة الصحيحة تجربياً التي ترى أن كل ثورة في العصر الحديث تبدأ عملياً كثورة بورجوازية وإن كانت مقتربة بأعمال ومتطلبات بروليتارية فالثورة في مثل هذه الأوضاع هي مجرد ثورة بورجوازية في نظر الانهاريين إن نتيجة هذا الفصل بين التوترين البورجوازية والبروليتارية هي **أن البروليتاريا يتوجب عليها أن تتخلى عن الأهداف الثورية الطبقية الخاصة بها**.

ولكن التصور المتطرف في يسارته يسقط هو الآخر في تأويل ميكانيكي النزعة لا يقل خطراً عن التصور الانهاري، وإن كان قد اكتشف الطابع السفسطائي للنظرية الانهارية ووعي الطابع الثوري لعصمنا. فقد خلص إلى القول، بعد أن اعترف بأن البروجوازية قد انتهت على الصعيد الأممي من أداء دورها الثوري في العصر الإمبريالي، **بأننا دخلنا من الآن فصاعداً في مرحلة الثورة البروليتارية الخالصة**. مؤكداً بذلك سقوطه في نزعة الفصل الميكانيكي بين الثورة البورجوازية والثورة البروليتارية. والحق أن النتيجة العملية لهذا الموقف بالغة الخطورة، إذ أنه يهمل، وأحياناً يزدرى وينبذ، كل ديناميكية الغليان والانحلال المميزة للعصر الإمبريالي (المسائل الزراعية والاستعمارية والقومية)، **وهي ديناميكية ثورية موضوعياً من خلال ارتباطها بالثورة البروليتارية**. ثم إن نظري الثورة البروليتارية الخالصة أولئك يتخلون عن طيب خاطر عن حلفاء البروليتاريا الفعليين البالغين الأهمية، ويزدرؤن ذلك السياق الثوري الذي يفتح للثورة آفاقاً عديدة، وينتظرؤن بالتالي الثورة البروليتارية «الخالصة» في سماء التجريد مع زعمهم في الوقت نفسه أنهم يعدون لها العدة. وقد قال لينين: «إن من ينتظر ثورة اجتماعية خالصة لن يعرفها أبداً، وليس ثورياً إلا بالكلام الثوري الذي لا يفهم الثورة الحقيقة».

ذلك أن الثورة الحقيقة هي التحويل الجدي للثورة البروجوازية إلى ثورة بروليتارية. وإذا كان من الواقع التاريخية الثابتة التي لا مرأء فيها أن تلك الطبقة التي كانت في الماضي قائدة الثورات البروجوازية الكبرى والمنتفع الأول بها قد أصبحت من الآن فصاعداً مناهضة للثورة موضوعياً، فهذا لا يعني أن المشكلات الموضوعية التي تدور هذه الثورات حول محورها قد سويت على الصعيد الاجتماعي، كما لا يعني أن الفئات الاجتماعية التي يمثل الحل الثوري لتلك المشكلات أهمية حيوية بالنسبة إليها قد تمت تلبية حاجاتها. بل على العكس من ذلك تماماً ! فالانعطاف المضاد للثورة الذي نفذته البروجوازية لا يتترجم في عداء هذه الأخيرة للبروليتاريا فحسب بل في عزوفها أيضاً عن التقاليد الثورية الخاصة بها. إنها تتنازل للبروليتاريا عن **ميراث ماضيها الثوري**. فالبروليتاريا هي من الآن فصاعداً الطبقة الوحيدة القادرة على السير بالثورة البروجوازية إلى نهاية الشوط بصورة منطقية متلاحمة. وهذا يعني من جهة أولى أن مطالب الثورة البروجوازية التي ما تزال راهنة لا يمكن تحقيقها إلا في إطار ثورة بروليتارية، ويعني من جهة الثانية أن الإنجاز الكامل لمطالب الثورة البروجوازية يفرض بالضرورة إلى الثورة البروليتارية. إذن فالثورة البروليتارية تعني في آن واحد إنجاز الثورة البروجوازية وتجاوزها.

إن إدراك هذه الحقيقة يفتح آفاقاً واسعة لفرض الثورة البروليتارية وامكانياتها. ولكن هذا يتطلب جهوداً هائلة من قبل البروليتاريا الثورية وحزبيها القائد، لأن تحقيق هذا الانتقال الجدي يفرض على البروليتاريا لا أن تملك معرفة صحيحة بالكلية الحقيقة فحسب، بل أن تتجاوز أيضاً الميل البورجوازية الصغيرة والعادات الفكرية التي كانت تحول دون رؤيتها الواضحة لتلك الكلية (وعلى سبيل المثال الآراء المسبقة القومية). وهكذا تنطرح على البروليتاريا ضرورة **تجاوز نفسها لتنول قيادة جميع المضطهدين**. و يأتي في المقام الأول نضال الشعوب المضطهدة في سبيل استقلالها القومي، وهو نضال له تأثير بالغ على التربية الثورية، سواء بالنسبة إلى بروليتاريا الشعب المضطهد التي تتجاوز نزعتها القومية الخاصة بتأييدها ذلك الاستقلال القومي إلى نهاية الشوط أو بالنسبة إلى بروليتاريا الشعب المضطهد التي تتجاوز هي أيضاً نزعتها القومية الخاصة ببنائها شعارات الاتحاد الفيدرالي والتضامن الأممي. ذلك أن البروليتاريا تناضل على حد قول لينين «في سبيل الاشتراكية ضد جوانب ضعفها الذاتي». والنضال في سبيل الثورة، وانتهاء الفرض الموضوعية التي يتيحها الوضع الأممي، والكافح الداخلي في سبيل إنتاج وعي الثوريين الطبقي، هي جوانب مترابطة متلاحمة من صيرورة جدلية واحدة.

إن الحرب الإمبريالية تردد إذن البروليتاريا باللحفاء من كل مكان **عندما تناضل هذه البروليتاريا ضد البروجوازية بصورة ثورية**. ولكن عندما لا تعني البروليتاريا وضعها ومهامها فإن الحرب الإمبريالية تقضي عليها بتميز ذاتي رهيب، وتجعل منها مجرد استطاله ذليل للبورجوازية. إن الحرب الإمبريالية تخلق وضعاً أممياً يتبع

للبروليتاريا إمكانية تزعم جميع المضطهدين والمستغلين، ويمكن فيه لنصالها في سبيل تحررها أن يصبح علامة ودليل تحرر جميع أولئك الذين تسترقهم الرأسمالية وتستعبدهم. ولكنها تخلق في الوقت نفسه وضعًا عالميًّا يتوجب فيه على ملايين البروليتاريين أن يفتكون بوحشية فائقة التهذيب بماليين من البروليتاريين الآخرين، وذلك بهدف تعزيز وتطوير الوضع الاحتكماري لمستغليهم. والمصير الذي سيكون من نصيب البروليتاريا مرهون بنفهمها لموقفها التاريخي الخاص وبوعيها الطبعي. ذلك أن «البشر يصنعون بأنفسهم تاريخهم الخاص، لا في الظروف التي يختارونها هم بالطبع، وإنما في الظروف التي يحدونها من فورهم في مواهتهم». وليس المسألة هنا معرفة ما إذا كانت البروليتاريا تريد الكفاح أو لا، وإنما معرفة المصالح التي ينبغي عليها أن تناضل في سبيلها، أمصالحها هي أم مصالح البورجوازية. إن المسألة التي يطرحها موقف البروليتاريا التاريخي ليس هي الاختيار بين الحرب والإمبريالية وبين الحرب على هذه الحرب، أي الحرب الأهلية.

إن ضرورة الحرب الأهلية، كوسيلة دفاعية في يد البروليتاريا تجاه الحرب الإمبريالية، تولد شأن جميع أشكال نضال البروليتاريا من شروط الصراع التي يفرضها تطور الإنتاج الرأسمالي والمجتمع البورجوازي على البروليتاريا. أما نشاط الحرب وأهمية رؤيتها النظرية الصحيحة فإنهما يمحضان البروليتاريا تلك القوة الضرورية للمقاومة أو الهجوم، وهي القوة التي تملكها فعلاً في إطار ذلك الوضع بحكم العلاقات الطبيعية ولكن التي لا تستطيع الارتفاع بها إلى مستوى الإمكانيات الموضوعية القائمة بحكم النقص في نضجها النظري والتنظيمي. وهكذا ظهر الإضراب الجماهيري، حتى قبل الحرب الإمبريالية، ك فعل عفوٍ للبروليتاريا ضد المرحلة الإمبريالية من الرأسمالية، وهذا الواقع الذي حاول يمين الأمية الثانية ووسطها إخفاءه بكل الوسائل قد أصبح شيئاً فشيئاً التراث المشترك لليسار الجذري. ولكن هنا أيضاً كان لبنين الوحيد الذي أدرك منذ عام 1905 أن الإضراب الجماهيري لا يكفي كسلاح للنضال الحاسم. ولقد وضع، بتقييمه تمرد موسكو الفاشل كمرحلة فاصلة وبمحاولته استخلاص التجارب العينية منه بينما كان بليخانوف يزعم «أنه ما كان ينبغي اللجوء إلى السلاح وشهره»، أقول: **وضع الأساس النظري لكتيك البروليتاريا الضوري في الحرب العالمية** قبل نشوئها بسنوات عدة. ذلك أن المرحلة الإمبريالية من الرأسمالية ونقطة الأوج التي تبلغها مع الحرب العالمية تشيران بلا ليس إلى أن الرأسمالية قد دخلت في المرحلة التي ستقرر بقاءها أو زوالها. ومن هنا تبذل البورجوازية بما تتمتع به من غريرة حادة كطبقة اعتادت على الحكم والسيادة وتدرك أن اتساع دوائر هيمنتها وتطور جهاز دولتها يوازيهما تقلص في الأساس الاجتماعي الواقعى لهيمنتها، أقول تبذل قصارى جهودها لتتوسيع هذا الأساس (عن طريق جسر «الفئات المتوسطة» في ركابها ورشوة الأристقراطية العمالية الخ)، وكذلك إلى سحق أعدائها الألداء سحقاً نهائياً قبل أن يتتبَّع هؤلاء الأعداء ويواجهوها بمقاومة حقيقة. وهذا فإن البورجوازية هي التي تصفي في كل مكان الأشكال «السلمية» لصراع الطبقات - تلك الأشكال التي كانت بالرغم من طابعها المؤقت والمهزوز بمبرر النظرية التحريرية - وهي التي تخثار أشكالاً أشد «عنفاً» (كما يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية). فهي توطد هيمنتها أكثر فأكثر على جهاز الدولة وتحدد به إلى درجة أن المطالب الاقتصادية المضطبة تصبح عرضة أكثر فأكثر إلى الاصطدام بهذا الجدار، وإلى درجة يجد العمال أنفسهم مرغمين معها على النضال ضد السلطة (وبالتالي في سبيل السلطة لاشعوريا) حتى وإن كانوا لا يتعلمون إلى أكثر من تلافى تدهور وضعهم الاقتصادي وخسارة المكاسب المتحققة. ونتيجة هذا التطور تجد البروليتاريا نفسها مكرهة على استخدام تكتيك الإضراب الجماهيري، بينما يبلغ ذعر الانتهازية من الثورة حدًا تصبح معه على استعداد دائم للتخلّي عن المكتسبات المتحققة بدلاً من أن تستخلص النتائج الثورية من ذلك الوضع. والإضراب الجماهيري هو في حد ذاته، موضوعياً، وسبلية ثورية. فكل إضراب جماهيري يخلق وضعاً ثورياً تستخلص منه البورجوازية بمساعدة جهاز الدولة الحد الأقصى من النتائج الضرورية لها للحفاظ على سيطرتها. وإزاء هذه الأساليب تجد البروليتاريا نفسها عاجزة، بل إن سلاح الإضراب الجماهيري يصبح هو نفسه وبالضرورة مفلولاً إزاءها إذا لم تنشر البروليتاريا السلاح هي أيضًا في مواجهة سلاح البورجوازية. وهذا يوجب عليها أن تبذل قصارى جهودها لتسلح بدورها، وتتوقع الفوضى والبلبلة في صفوف جيش البورجوازية الذي يتألف من غالبية ساحة من العمال والفلاحين، ولترد سلاح البورجوازية إلى نحرها هي بالذات. (إن ثورة 1905 تقدم أمثلة عديدة تجلّت فيها غريرة طبقة صحيحة إلى أبعد الحدود، ولكنها تظل من وجهة النظر هذه مجرد غريرة).

والحرب الإمبريالية تزيد من حدة توتر الوضع هذا إلى أقصى الحدود. فالبورجوازية تضع البروليتاريا أمام الإحراج التالي: إما أن تسفك دماء رفاقها الطبيقيين في البلدان الأخرى على مذبح المصالح الاحتكمارية للبورجوازية وأن تسفك دمها هي بالذات في سبيل هذه المصالح، وإنما أن تطيح بهيمنة البورجوازية بعنف السلاح. وكل وسائل النضال الأخرى ضد هذا العنف الفائق المفروض على البروليتاريا تقف عاجزة لأنها ستتحطم جميعها، بلا استثناء على صخرة الجهاز العسكري للدول الإمبريالية. وعلى هذا، وإذا كانت البروليتاريا تريد الإفلات من طوق ذلك العنف الفائق، فإن عليها أن تشن بنفسها القتال ضد ذلك الجهاز العسكري وأن ترد السلاح الذي اضطرت البورجوازية الإمبريالية إلى تسليمه إلى الشعب إلى نحر البورجوازية وأن تستخدمه لإبادة الإمبريالية.

وهكذا نرى أن وجهة النظر البلشفية لا تتطوّي على أي شيء خارق للعادة. بل على العكس: فعقدة الموقف تتعدد في العلاقات الطبقية بين البورجوازية والبروليتاريا. فالحرب، على حد تعريف كلاوزيفيتش⁽⁵⁾، ليست سوى استمرارها من جميع الروايات والمستويات. أي أن الحرب لا تعني أن الخط الذي سار عليه قطر من الأقطار في أيام «السلم» في مضمون سياسة الدولة الخارجية قد أفضى إلى نتيجته النهائية فحسب، بل تعني أيضاً أن الحرب تشجع إلى أعلى مستوى، ومن خلال تمثيل الطبقات في قطر من الأقطار (أو في العالم قاطبة)، الميول والنزعات التي سبق لها أن أعلنت عن نفسها بصورة فعالة في قلب المجتمع في أيام «السلم». إذن فالحرب لا تخلق وضعاً جديداً كل الجدة لا بالنسبة إلى قطر محدد ولا بالنسبة إلى طبقة محددة داخل أمة محددة. والشيء الجديد الذي تضيّفه الحرب فعلاً يتمثل فقط في التحويل النوعي للحالة الكمية الخارجية لجميع المشكلات. ومن هذه الزاوية وحدها، ولهذا السبب وحده، تخلق الحرب وضعاً جديداً.

ليست الحرب إذن، من وجهة نظر اقتصادية واجتماعية، سوى إحدى مراحل التطور الإمبريالي للرأسمالية. ولهذا فإنها ليست بالضرورة سوى إحدى المراحل في نضال البروليتاريا الطبقي ضد البورجوازية. والنظرية الليينية عن الإمبريالية تستمد أهميتها من أن لينين أقام بصورة نظرية متماسكة - وهذا ما لم يفعله أحد غيره قط - صلة منطقية بين الحرب العالمي والتطور الإجمالي، ويرهن على هذه الصلة بوضوح كبير على ضوء المشكلات العينية التي تشيرها الحرب. ولكن لما كانت الماديات التاريخية هي نظرية النضال الطبقي البروليتاري، فإن إرساء تلك الصلة يظل ناقصاً إذا لم تكن نظرية الإمبريالية نظرية تيارات الحركة العاملة في الوقت نفسه. إذن فليست المسألة مسألة الفهم الواضح للكيفية التي يتوجب بها على البروليتاريا أن تتصرف تبعاً لمصالحها الطبقية في ذلك الوضع الأممي المستجد فحسب، بل هي أيضاً وفي الوقت نفسه مسألة تبيان الأساس النظري الذي تقوم عليها سائر المواقف «البروليتارية» تجاه الإمبريالية وال الحرب الإمبريالية وتبيّن طبيعة التبدلات الطارئة على بنية البروليتاريا، هذه التبدلات التي تولد أنصاراً وأتباعاً لتلك النظريات وتحول هذه الأخيرة بال التالي إلى تيارات سياسية.

إن المسألة قبل كل شيء هي إقامة البرهان على وجود هذه التيارات السياسية فعلاً، وإقامة البرهان على أن الموقف الذي وقفته الاشتراكية-الديمقراطية إزاء الحرب لم يكن نتيجة ضلال مؤقت وجبن الخ، بل كان النتيجة الحتمية لتطورها السابق، وبالتالي إقامة البرهان على أن هذا الموقف يجب أن يفهم في إطار تاريخ الحركة العاملة وأن يجري تحليله بدلالة «الاختلافات السابقة في الآراء» في أوساط الاشتراكية-الديمقراطية (التحررية، الخ). ييد أن وجهة النظر هذه التي هي البداية بعينها في أصول المنهج الماركسي (النظر على سبيل المثال إلى الطريقة التي عالج بها «البيان الشيوعي» التيارات المعاصرة له) لم تفرض نفسها وتنتصر إلا بصعوبة بالغة في أوساط الجناح الثوري من الحركة العاملة. بل إن جماعة «الأممية» نفسها، أي جماعة روزا لوکسمبورغ وفرانز مهرينغ⁽⁶⁾، لم تتمكن من تطبيق وجهة النظر المنهجية هذه ولم تفلح في استخلاص جميع النتائج منها. ويدعي أن كل إدانة للانتهازية وللموقف الذي تقفه من الحرب لا تنطلق من واقع أن الانتهازية تمثل تيارات محدداً ومتمايزاً من وجهة النظر التاريخية من تيارات الحركة العاملة ولا تفهم أن حاضر الانتهازية هو النتيجة العضوية لماضيها، أقول إن مثل هذه الإدانة لا ترتفع إلى أكثر من المستوى المبدئي الأولي للنقاش الماركسي ولا تتوصّل إلى استخلاص الاستنتاجات المترتبة على الإدانة نفسها، وهي استنتاجات عملية وعینية ضرورية في لحظة العمل على صعيد التكتيك وعلى صعيد التنظيم معاً.

ولقد كان من الواضح بالنسبة إلى لينين، وإليه وحده - نحن نذكر ذلك - منذ بداية الحرب العالمية أن مواقف شابيeman وبلخانوف وفاندريفيلد⁽⁷⁾ الخ إزاء الحرب إن هي في الواقع إلا التطبيق المنطقي لمبادي التحررية على الوضع المستجد.

ولكن فيم تكمّن - باختصار - ماهية التحررية؟ إن التحررية تسعى أولاً إلى تجاوز وجهة نظر الماديات التاريخية التي ترى إلى جميع ظاهرات الواقع التاريخي-الاجتماعي من وجهة النظر البروليتارية الطبقية وحدها لا غير. ونقطة الانطلاق التي اختارتها التحررية هي صالح «المجتمع بأسره». ولكن لما لم يكن من وجود عيني لهذه المصالح العامة، ولما كان ما يمكن أن يتلخص صفة المصالح العامة ليس في الواقع سوى المحصلة المؤقتة لتفاعل وتدخل مختلف القوى الطبقية المتصارعة، فإن التحرري يفهم نتيجة الصيرورة التاريخية المتغيرة دوماً، على أنها نقطة انطلاق منهجية متماثلة دوماً. وهكذا فإنه يجعل الأمور، حتى من وجهة النظر النظرية أيضاً، تسير على رأسها. أما من وجهة النظر العملية فإن التحررية هي في ماهيتها وبالضرورة تسوية وحل وسط، حتى ولو لم تأخذ بعين الاعتبار غير نقطة انطلاقها وحدها. وهي دوماً انتقائية: أي أنها تحاول أن تعلم وتسوي على صعيد نظري الفروق الطبقية وأن تكسر من حدتها لتجعل من وحدتها - وهي وحدة تسير موضوعياً على رأسها ولا وجود لها ذاتياً إلا في رأس التحرري - المعيار في تقييم الأحداث.

⁽⁵⁾ كارل فون كلاوزيفيتش (1780 – 1831)، جنرال بروسي، كتابه «في الحرب» من أشهر ما ألف حول هذا الموضوع. «العرب»

⁽⁶⁾ وهي من أكثر الجماعات تطرفاً في نزعتها اليسارية في أوساط الحركة الماركسيّة في العقد الثاني من هذا القرن. «العرب».

⁽⁷⁾ هم من فرسان الأهمية الثانية الذين خانوا المبدأ الأممي للنظرية الماركسيّة، وقاوموا بالدفاع عن الوطن أي بالتحالف مع البورجوازية في الحرب الإمبريالية، وعارضوا تحويل هذه الحرب إلى حرب أهلية. «العرب»

ولهذا السبب يرفض التحريفي ثانياً **الجدل** وينبذه. ذلك أن الجدل ليس سوى التعبير التصوري عن حقيقة أن تطور المجتمع ينطلق في الواقع من سلسلة من التناقضات وأن هذه التناقضات (بين الطبقات، بين وجودها الاقتصادي المتأخر، الخ) تشكل الأساس والرواية الواقعية لكل حدث وأن «وحدة» المجتمع لا يمكن أن تكون، ما دام المحور الذي يقوم عليه المجتمع هو الانقسام إلى طبقات، سوى مفهوم مجرد ونتيجة عارضة دوماً لتفاعل تلك التناقضات. ولكن لما لم يكن الجدل كمنهج سوى الصياغة النظرية لحقيقة أن المجتمع يتبع تطويره من خلال سلسلة من التناقضات وبالانتقال من نقيس إلى آخر، أي **طريقة ثورية**، لذا فإن النبذ النظري للجدل يعني قطعية مبدئية مع كل السلوك الثوري.

ثالثاً، إن التحريفيين بفرضهم الاعتراف بالواقع الراهن للجدل كحركة متناقضات تنتج دوماً ما هو جديد يعرّون تفكيرهم ومحاكماتهم العقلية من كل ما هو تاريخي وعيني وجدي. والواقع الذي يمتحنونه خاضع بحكم رابطة دوغمائية وميكانيكية لـ«القوانين الحديدة الأبدية» التي تنتج بلا انقطاع وامتثالاً لما هي الشيء ذاته دوماً والتي ينصاع لها الإنسان كما لو أنها قدرة انسياخه لقوانين الطبيعة. إذن يكفي أن نعرف هذه القوانين مرة واحدة لنعرف كيف سيتطور مصير البروليتاريا. أما الافتراض بأنه يمكن أن تنشأ أوضاع جديدة غير متوقعة من قبل تلك القوانين أو أوضاع مآلها مرهون بقرار البروليتاريا، فهذا تفكير غير علمي في نظر التحريفيين. (إن التتمة الضرورية لهذا التصور هي الميل إلى التهويل من شأن الشخصيات الكبيرة والأخلاقيات الخ).

وبينيغي أن نلاحظ، رابعاً، أن هذه القوانين هي **قوانين التطور الرأسمالي**، وأن الإحاج التحريفي على الصحة الأبدية وما فوق التاريخية لهذه القوانين يعني أنه يعتبر المجتمع الرأسمالي، كما تعتبره الورجوازية بالذات، واقعاً ثابتاً غير قابل للتغيير جوهرياً. فالتحريفي لا يعتبر المجتمع البورجوازي نتاجاً للتاريخ وبالتالي نتاجاً مقتضايا عليه تاريخياً بالرزاول، كما أنه لا ينظر إلى العلم على أنه وسيلة لتحديد لحظة سقوط ذلك المجتمع وللتعميل بها، بل على أنه، في أحسن الأحوال، وسيلة لتحسين وضع البروليتاريا **داخل المجتمع البورجوازي**. وكل محاكمة عقلية تتجاوز عملياً إطار المجتمع البورجوازي هي في نظر التحريفية وهم وطوبائية.

ولهذا، وهنا تكمن نقطتنا الخامسة، تبني التحريفية ما يسمى بالسياسة الواقعية. **فهي تصحي دوماً بالمصالح الحقيقية لمجموع الطبقة العاملة** وتوجه تهمة الطوبائية إلى كل دفاع متماسك عن هذه المصالح) على **مدح الدفاع عن المصالح المباشرة لبعض الفئات**. وهذه الملاحمات القليلة كافية لتتبين بوضوح أن التحريفية ما أمكنها أن تصبح تياراً حقيقياً من تيارات الحركة العاملة إلا لأن تطور الرأسمالية الجديد قد أفسح المجال بصورة مؤقتة أمام بعض فئات الطبقة العاملة للحصول بنتيجة هذا الوضع على بعض المكاسب الاقتصادية، وإلا لأن الشكل التنظيمي للأحزاب العمالية يضمن لهذه الفئات ولممثليها الفكريين نفوذاً أكبر من نفوذ جماهير البروليتاريا العريضة التي ليست هي ثورية إلا غريزياً وعلى نحو مبهم وملتبس.

إن الصفة الجامعية بين جميع التيارات الانتهازية هي أنها لا تنظر أبداً إلى الأحداث من وجهة نظر البروليتاريا، وتسقط بالتالي في نزعة سياسية واقعية انتقائية لا تاريخية وغير جدلية. وهذا ما يوحد بين تصوراتها المختلفة عن الحرب، ويظهرها جميعاً بلا استثناء كنتيجة حتمية لانتهازيتها السابقة. والذليلية اللامشروطة التي تميز موقف الجناح اليميني إزاء القوى الإمبريالية في قطره القومي الخاص هي النتيجة العضوية لوجهة النظر التي تجعل من البورجوازية - وإن مع بعض التحفظات في البداية - الطبقة القائدة لتطور التاريخ والتي تحت البروليتاريا على دعم «دور البورجوازية التقديمي». وعندما يصف كاوتسكي «الأممية» بأنها مجرد أداة للسلم لا تصلح للاستخدام في أوقات الحرب، فإنه لا يزيد شيئاً على قول المنشافي الروسي تشيريفانين عندما راح ينبد نفسه وحظه بعد الثورة الروسية الأولى: «إنه لمن الصعب إبان الحريق الثوري وفي اللحظة التي تقترب فيها الأهداف الثورية كل الاقتراب من إمكانية إنجازها شق الطريق لتكثيك منشافي معقول»، الخ.

إن تيارات الانتهازية يتمايز بعضها عن بعض **تبعاً للفئات البورجوازية** التي تحاول الاعتماد عليها والتي تسعى إلى جر البروليتاريا في ركابها. فالجناح اليميني من الانتهازية يعلق آماله على الصناعة الثقيلة والرأسمال المصرفية. وفي هذه الحال يعترف اعترافاً غير مشروط بالإمبريالية على أنها ضرورية، ويزعم أن البروليتاريا يجب أن تضمن تحقيق مصالحها في الحرب الإمبريالية وفي عظمة أمتها وانتصارها. وفي حالات أخرى تسعى الانتهازية إلى التحالف مع تلك الفئات من البورجوازية التي تجد نفسها بالتأكيد مرغمة على المساعدة في التطور ولكن التي تشعر بأنها مبعدة إلى المرتبة الثانية. وهذه الفئات تتبع عملياً الإمبريالية (ولا مدعى لها من أن تتبعها) ولكنها تتذمر من هذه العبودية و«تتمنى» أن تأخذ الأمور مجرّد آخر. ولهذا السبب تطمح إلى عودة السلام والتبادل الحر والظروف «العادية»، ولكنها تظل عاجزة مع ذلك عن الظهور بمظهر الخصم الفعال للإمبريالية بل على العكس من ذلك، فهي لا تخوض معركة لا جدوى منها أصلاً إلا لتكوين لها حصتها في الغنيمة الإمبريالية (أقسام من الصناعة الخفيفة، البورجوازية الصغيرة، الخ). ومن خلال هذا المنظور تبدو الإمبريالية وكأنها حدث «طارئ» و«عرض عارض» وكأنها تسعى إلى تدبير حل سلمي وإلى تجميد التعارضات. وفي هذه الحال لا يعود المطلوب من البروليتاريا، التي يرغب وسط الحزب الاشتراكي-الديموقراطي في أن يشددها إلى ركاب تلك الفئات الاجتماعية، أن تناضل بصورة فعالة ونشطة ضد الحرب (ولكن عدم النضال ضد الحرب يعني عملياً المساهمة فيها)، بل أن تكتفي بإعلان ضرورة سلم «عادل»، الخ.

إن «الأمية» هي التعبير التنظيمي عن وحدة مصالح البروليتاريا العالمية قاطبة. ولقد كفت «الأمية» عملياً عن الوجود من اللحظة التي تم فيها الاعتراف نظرياً بامكانية دخول العمال في صراع فيما بينهم لخدمة البورجوازية. كما أنه لم يعد في الإمكان تقويم هذه «الأمية» وإعادتها إلى الطريق القويم وأحياؤها من اللحظة التي اتضح فيها أن قتال العمال الدموي ضد العمال الآخرين تبعاً لمصالح الدول الإمبريالية المتنافسة هو النتيجة الحتمية للسلوك الذي كانت العناصر المهيمنة على «الأمية» قد سلكته حتى ذلك الحين. والاعتراف بالانتهازية يوصفها تياراً محدداً يعني أنها **العدو الطبقي للبروليتاريا داخل المعسكر العمالـي بالذات**. وعلى هذا فإن طرد الانتهازية من الحركة العاملة هو الشرط الأول الذي لا غنى عنه لخوض كفاح ناجح ضد البورجوازية. ومن هنا فإن تهيئة الثورة البروليتارية تقضي بصورة مطلقة أن يتحرر العمال من ذلك التأثير الضار من وجهة النظر الفكرية والتنظيمية. ولما كان هذا النضال هو على وجه التحديد نضال طبقتهم برمتها ضد البورجوازية العالمية، فإن النتيجة الضرورية التي يجب أن تنجم عن الكفاح ضد الانتهازية كتيار هي إنشاء «أمية» جديدة بروليتارية وثوروية.

إن تمرغ «الأمية» القديمة في مستنقع الانتهازية هو نتيجة مرحلة لم يكن طابعها الثوري بارزاً سافراً، وإن هيأ الأمية القديمة وضرورة قيام أممية جديدة هما إشارة إلى ابتداء مرحلة حتمية من الحروب الأهلية. ولكن هذا لا يعني أن القتال يجب أن يبدأ من الآن وفي كل يوم حول المدارس، وإنما يعني أن هذه الضرورة يمكن أن تطرح نفسها وأن تبرز إلى حيز الوجود ابتداء من العد وفي كل لحظة، وأن التاريخ قد وضع - باختصار - الحرب الأهلية على جدول الأعمال. والحزب البروليتاري، وكم بالأحرى الأممية البروليتارية، لا يمكن أن يكونا قابلين للحياة إلا إذا اعترافاً صريحاً بهذه الضرورة وعقداً العزم على تهيئة البروليتاريا لهذه الضرورة ولنتائجها على المستويات المعنية والمادية، النظرية والتنظيمية.

ونقطة انطلاق هذه التهيئة يجب أن تكون تفهم طابع تلك المرحلة ويوم تعرف الطبقة العاملة بالحرب العالمية كنتيجة حتمية لتطور الرأسمالية الإمبريالي، ويوم تفهم أن **الحرب الأهلية هي المقاومة الوحيدة الممكنة** للإبادة التدريجية التي تواجهها من أجل خدمة البورجوازية، يومذاك فقط يمكن أن يبدأ الإعداد المادي والتنظيمي لهذه المقاومة. ويوم تصبح هذه المقاومة فعلية، يتحول الغليان الأصم لجميع المضطهدين إلى تحالف مع البروليتاريا المناضلة في سبيل تحررها. فعلى البروليتاريا إذن أن تمتلك قبل كل شيء وعيًا طبقياً صحيحاً ومتحسداً مادياً ملمساً، وعيًا خاصاً بها ومميزاً لها حتى يكون في وسعها بواسطته أن تتولى قيادة الكفاح التحريري الحقيقي، أعني الثورة العالمية الحقيقة. والأهمية التي ولدت من هذا النصال هي بالتالي إعادة توحيد للعناصر الثورية الأصلية من الطبقة العاملة، من أجل الكفاح وعلى أرض نظرية صلبة واضحة. ولكنها في الوقت نفسه جهاز ومركز النضال التحريري للمضطهدين كافة في العالم قاطبة. إنها **الحزب البليشففي**، التصور الليبي عن الحزب الموضوع برسم العالم قاطبة. وكما أن الحرب العالمية قد أظهرت، من خلال مجهر المجذرة الهائلة على نطاق الكرة الأرضية بأسرها، قوى الرأسمالية الأفلة وأمكانيات النصال ضدها، كذلك سبق للبيدين أن تبينها بوضوح كبير من خلال النموذج المصغر للرأسمالية الروسية الوليدة ومن خلال إمكانيات الثورة الروسية.

5 - الدّولة سلاحاً

تتجلى الماهية الثورية لعصر من العصور على أوضح ما يكون عندما يتجاوز صراع الأحزاب والطبقات النطاق التنظيمي لدولة محددة ويشرع بنفس حدودها ويتخطيها. وهذا الصراع يأخذ من جهة أولى شكل نضال من أجل سلطة الدولة، وتساهم الدولة نفسها من جهة ثانية في هذا الصراع رسمياً. وهذا لا يعني أن الصراع موجه ضد الدولة فحسب، بل يعني أيضاً أن الدولة نفسها تظهر على حقيقتها كصلاح في الصراع الطبقي، كأدلة، رئيسية من الأدوات المستخدمة في الحفاظ على العيمنة الطبقية.

لقد نوهَ ماركس وإنجلز باستمرار بطابع الدولة هذا وقاما بتحليله من خلال جميع ارتباطاته بتطور التاريخ وبالثورة البروليتارية. لقد وضع ماركس وإنجلز من خلال صيغة واضحة كل الوضوح لا التباس فيها أنسس نظرية الدولة في إطار المادية التاريخية. ولكن هنها على وجه التحديد ابتدعت الانتهازية أكثر ما يكون الابتعاد وبتصميم عن ماركس وإنجلز. ذلك أنه كان من الممكن في أي مجال آخر تصوير «إعادة النظر» في النظريات الاقتصادية الخصوصية على أن مبدأها يتفق مع ماهية المنهج الماركسي بالذات (كما فعل برنشتاين)، أو إضفاء اتجاه ميكانيكي وجبري وغير جدلي وغير ثوري معاً على المذاهب الاقتصادية التي ما تزال تحتفظ بورقة تين «الأرثوذكسيّة»⁽⁸⁾ (كما فعل كاوتسكي). ولكن مجرد إثارة هذه المشكلات التي كان ماركس وإنجلز يعتبرانها أنسس نظريةهما عن الدولة يعدل الاعتراف بأنية الثورة البروليتارية ويطبعها الراغben. وانتهازية جميع التيارات السائدة في الأهمية الثانية تتجلّى قبل كل شيء وعلى أوضح ما يكون في أن أي منها لم يهتم اهتماماً جدياً بمشكلة الدولة. وهذا على وجه التحديد، عند نقطة التصالب هذه، تتلاشى الفروق بين كاوتسكي وبرنشتاين. فجميعهم بلا استثناء قبلوا بكل بساطة بالدولة البورجوازية. وعندما وجوهوا النقد إليها، فهذا فقط ليكافحوا بعض

⁽⁸⁾ أي العقيدة القوية، ويقصد بها هنا الماركسية الصحيحة، الثورية، بال مقابلة مع الماركسية التحريرية الانهزامية. «المغرب»

الأشكال الظاهرية والضارة بالبروليتاريا من الدولة. ولقد ركزوا اهتمامهم على الدولة من زاوية المصالح المباشرة الخصوصية، ولم يحلوا قط ماهيتها ويعيّموها بدلالة مجمل مصالح الطبقة العاملة. وإذا كان الجناح اليساري من الأهمية الثانية قد برهن على مثل هذا النقص في النضج والوضوح، فهذا لأنّه عجز عن طرح مشكلة الدولة طرحاً واضحاً. ولقد شارف أحياناً على طرح مشكلة الثورة ومشكلة النضال ضد الدولة، ولكنّه لبّث عاجزاً عن طرح المسألة عينها - حتى على الصعيد النظري المفضّل - وبالتالي عن بيان نتائجها العملية في الواقع التاريخي الراهن.

وهنا أيضاً كان لينين الوحيد الذي ارتفع من جديد إلى المستوى النظري للتصور الماركسي، تصور ماركس بالذات، والى نقاء الموقف البروليتاري تجاه مشكلة الدولة. وحتى إذا لم تتعد مساهمته حدود هذا، فإنّها تتشكل في حد ذاتها نتيجة نظرية رقيقة المستوى. ولكن لينين بإعادة توكيده النظرية الماركسيّة عن الدولة لم يجدد فلسفياً المذهب الأولي ولا مبادئه الحقيقية عن طريق تنظيمها وتنهيّجها فلسفياً، بل نقل ذلك المذهب إلى صعيد ما هو عيني وجسده عينياً في الواقع الراهن العملي. **لقد رأى لينين وطرح مسألة الدولة كمسألة راهنة من مسائل البروليتاريا المناضلة.** أي أنه أخذ على عاته طرحاً عيناً حاسماً. ذلك أنه إذا كانت قد أتيحت للانهزائيين موضوعياً إمكانية تشوّيه نظرية المادية التاريخية عن الدولة، تلك النظرية الواضحة الصافية مع ذلك صفاء ماء البح، فهذا لأنّها لم تكن تعود قبل لينين أن تكون أكثر من نظرية عامة، تفسير تاريخي، اقتصادي، فلسفياً، الخ، لما هيّة الدولة. ولا شك في أنّ ماركس وإنجلز قد فسراً، انطلاقاً من ظاهرات عصرهما الثورية العينية، التقدّم الواقعي للفكرة البروليتارية عن الدولة (الحكومة)، ولا شك أيضاً في أنّهما نوّهَا بالأخطاء التي تمثلها النظريات المغلولة عن الدولة بالنسبة إلى قيادة النضال الطبقي البروليتاري (فقد برّنامج غوتا). ولكن أقرب تلاميذهما وخيرة قادة ذلك العصر لم يفهموا هم أنفسهم **العلاقة القائمة** بين مشكلة الدولة وبين نشاطهم اليومي المباشر. ولقد كان لا بد من توفر عبقرية ماركس وإنجلز لإدراك صلة هذا الواقع - الراهن فقط من خلال رؤية شاملة للأشياء - بالنضالات اليومية الصغيرة. وغنى عن البيان أن البروليتاريا كانت أقل قدرة من أي كان آخر على ربط هذه المشكلة الجوهرية بربّاطاً عضوياً بالمشكلات المباشرة للنضال اليومي. ولقد راحت هذه المشكلة تأخذ أكثر فأكثر صفة «الهدف النهائي» الذي لا حل له إلا في المستقبل. ولقد كان لينين هو الوحيد أيضاً الذي حول نظرياً هذا «المستقبل» إلى حاضر وإنما بدءاً من اللحظة التي باتت فيها مسألة الدولة تطرح كمشكلة راهنة، أمكن للبروليتاريا إلا تعود تنظر إلى الدولة الرأسمالية عيناً على أنها عالمها المحيط الطبيعي والثابت، على أنها النظام الاجتماعي الوحيدة الممكن لوجودها الراهن. واتّخاذ مثل هذا الموقف إزاء الدولة البورجوازية هو وحده الذي يحرر البروليتاريا من **سبق الظن النظري** إزاء الدولة و يجعل من موقفها تجاهها مجرد مسألة تكتيكية. فمن الواضح على سبيل المثال أن وراء تكتيك الشرعية باي ثمن ووراء رومانسيّة اللاشرعية على حد سواء يختبئ نفس غياب استقلال الفكر النظري إزاء الدولة البورجوازية. إذ أن الدولة البورجوازية لا ينظر إليها في كلتا الحالتين على أنها أداة كفاح طبقي للبورجوازية، أداة ينبغي أن يحسب لها حساب لما تمثله من قوة واقعية، ولكن بوصفها أداة لا أكثر، أداة لا يتعدى احترامها المؤقت أن يكون أكثر من مجرد مسألة **منفعه**.

ولكن تحليل لينين للدولة كسلاح من أسلحة النضال الطبقي ينقل المسألة إلى صعيد أكثر عينية أيضاً. فلينين لا يستخلص النتائج العملية (الإيديولوجية، التكتيكية، الخ) المباشرة من معرفة تاريخية صحيحة ودقيقة بالدولة البورجوازية فحسب، بل يرسم أيضاً عيناً ومن خلال الارتباط العضوي بسائر أدوات نضال البروليتاريا الهيكل الأولي للدولة البروليتارية. وقد اتّضح اليوم أن التقسيم التقليدي للحركة العاملة (الحزب، النقابة، التعاونية) غير كافٍ لكافح البروليتاريا الثوري، وبات من الضوري خلق أحجمزة قادرة على جمع صفوف البروليتاريا قاطبة. بل أيضاً على جمع صفوف الجماهير العريضة الواسعة لجميع المستغلين في المجتمع الرأسمالي (الفلاحين والجنود) لجرّهم إلى المعركة. بين أن هذه الأجهزة، وأعني السوفيتات، هي في طبيعتها بالذات، وحتى في إطار المجتمع البورجوازي، أجهزة البروليتاريا المؤسسة لنفسها والمنظمة لصفوفها في طبقة متباينة. وهذا تكون الثورة قد وضعت في جدول الأعمال. وكما يقول ماركس، فإن «تنظيم العناصر الثورية تنظيمياً طبقياً يفترض اكمال وجود جميع القوى المنتجة التي ما يزال في وسعها أن تتطور في إطار المجتمع القديم».

ولتنظيم مجموع الطبقة العاملة هذا لا بد أن يخوض - أشاء ذلك أم أبي - الكفاح ضد جهاز دولة البورجوازية. وليس في الأمر من خيار: فإذاً أن تطيح المجالس العمالية بتنظيم المجالس العمالية، وإما أن يتمكن هذا الجهاز من تزييف المجالس ومن تحويلها إلى مجرد منظمات شكلية مقتضي عليها بالتلذذ والفناء. وبعبارة أخرى، إما أن تفلح البورجوازية في سحق الحركات الجماهيرية من خلال عملها المناهض للثورة وفي إعادة الأمور إلى نصابها «الطبقي» وتوطيد «النظام»، وإما أن ينشأ عن المجالس والمنظمات النضالية للبروليتاريا تنظيم هيمنة البروليتاريا، جهاز دولتها الذي هو على وجه التحديد منظمة للصراع الطبقي. ومن هنا أمامت المجالس العمالية اللثام، منذ أن ظهرت في عام 1905 في أشكالها البدائية، عن طبعها المميز هذا: إنها **حكومة مضادة**. وفي حين أن الأجهزة الأخرى لصراع الطبقات تكتيكيّاً مع عصر تأخذ فيه سيطرة البورجوازية طابعاً صريحاً سافراً (أي تستطيع أن تقوم في هذه الشروط بالذات بعمل ثوري)، فإن من طبيعة المجالس العمالية بالمقابل أن يكون على صلة سلطوية مزدوجة بالدولة البورجوازية وفي حالة تناقض معها. ومن هنا، وعندما اعترف مارتنوف بالمجالس العمالية كأجهزة كفاحية وأنكر في الوقت نفسه رسالتها في أن تصبح جهاز دولة، فإنه يكون قد أسقط من النظرية الثورة بالذات، أي استيلاء البروليتاريا الفعلي على السلطة.

وبالمقابل، وعندما يفترض بعض النظريين المتطرفين في نزعتهم اليسارية أن المجالس العمالية هي تنظيم طبقي دائم ويعملون عن رغبتهم في أن تحل محل الحزب والنقاية، فإنهم يسفرون القناع عن أنهم لم يفهموا الفارق بين الوضع التوري والوضع غير التوري، ولا الدور الأصيل المتميّز للمجالس العمالية. إنهم لا يعلمون أن مجرد الاعتراف بالإمكانية العينية للمجالس العمالية أمر يتجاوز إطار المجتمع البورجوازي ويفتح الآفاق للثورة البروليتارية، وأن مجرد وجود المجالس العمالية يعني أساساً - هذا إذا لم تكن المسألة مهزلة - أن النضال الحقيقي في سبيل سلطة الدولة قد بدأ وأن الحرب الأهلية قد أصبحت حقيقة واقعة.

إن المجلس العمال يوصفه جهاز دولة يعني **الدولة كسلاح للنضال الطبقي البروليتاري**. وإذا كانت البروليتاريا تناضل ضد الهيمنة الطبقية للبورجوازية وإذا كانت تسعى إلى إقامة مجتمع لا طبقي، فإن الانتهازية بتصوراتها غير الجدلية وبالتالي اللاحاتيرية واللانثورية لم تستخلص من واقع نضال البروليتاريا هذا سوى استنتاج يقول بأن من واجب البروليتاريا أن تكون، بوصفها خصماً لهيمنة البورجوازية الطبقية، خصماً أيضاً لكل هيمنة طبقية أخرى. ومن هنا تخلص الانتهازية إلى القول بأن الأشكال الخاصة لهيمنة البروليتاريا يجب ألا تكون في حال من الأحوال أجهزة هيمنة طبقية، أجهزة قمع. والحقيقة أن مثل هذا الرأي لا يعود أن يكون طوبائياً إذا نظرنا إليه بصورة مجردة، لأن هيمنة البروليتاريا غير قابلة مطلقاً لأن تتحقق على تلك الصورة. ولكن ذلك الرأي هو بمثابة **استسلام إيديولوجي أمام البورجوازية** إذا ما نظرنا إليه نظرة عينية وحاولنا تطبيقه على الواقع الراهن. فالديمقراطية التي هي أكمل أشكال هيمنة البورجوازية تبدو في نظر التصور الانتهازية شكلًا أولياً للديمقراطية البروليتارية، بل تصبح في أحيان كثيرة هي نفسها الديمقراطية البروليتارية التي لا يعود لها من مهمة غير أن تسعى إلى اكتساب غالبية السكان إلى «المثل العليا» للديمقراطية والاشتراكية عن طريق تحريض سلمي. وعلى هذا فإن الانتقال من الديمقراطية البورجوازية إلى الديمقراطية البروليتارية ليس في نظر الانتهازية انتقالاً ثورياً بالضرورة. والدافع الثوري عن النزعة بين الثورة البروليتارية والبورجوازية وطابعه المناهض للثورة يتجلّيات على أوضح ما يمكن في امتناع الاشتراكية-الديمقراطية عن مقاومة الرجعية الفاشية مقاومة جدية وعن الدفاع عن الديمقراطية بوسائل ثورية).

إن النتيجة الحتمية لمثل ذلك التصور ليست إقصاء الثورة عن التطور التاريخي فحسب، وإنما تصوّر الثورة على أنها سلسلة من الانتقالات الخرقاء أو الحادقة فحسب، بل أيضاً **تمويه الطابع الظبيقي البورجوازي للديمقراطية وحجه عن أنظار البروليتاريا**. بيد أن الخداع ينبع قبل كل شيء من التصور غير الجدل عن الغالية. وبالفعل، وما دامت هيمنة الطبقة العاملة تمثل، بحكم طبيعتها بالذات، مصالح الغالية العظمى من السكان، فإن الكثيرون من العمال يتوهّمون أن الديمقراطية الشكلية الحالمة التي يكتسب فيها صوت كل مواطن القيمة ذاتها هي خير أداة للتعبير والدفاع عن مصالح الجميع. ولكن ما يغيب عن الأذهان في هذه الحال هو التفصيل البسيط - البسيط! - التالي وأعني أن البشر ليسوا أفراداً مجردين، مواطنين مجردين، ذرات معزولة في فلك دولة محددة، وإنما هم على العكس وبلا استثناء بشّر عينيون يشغلون مكاناً محدداً في الإنتاج الاجتماعي وتتحدد كيّونوتهم الاجتماعية (وبالتالي فكرهم) انطلاقاً من ذلك الوضع. والديمقراطية الحالمة للمجتمع البورجوازي تستبعد هذا التوسط بربطها الفرد المجرد مباشرة بالكل الذي تمثله الدولة والذي يبدو هو الآخر مجرداً من هذه الزاوية. وقد بات المجتمع البورجوازي، بحكم الطابع الشكلي للديمقراطية الحالمة، **مسحوقاً مفتتاً من الزاوية السياسية وبات العمال مذرّلين**، وبالتالي **مشلولين**. وهذا ليس مجرد امتياز للبورجوازية، بل هو الشرط الحاسم على وجه التحديد لسيطرتها الطبقية.

ذلك أن كل سيطرة طبقية مهما طال أمد اعتمادها على القوة لا تستطيع أن تصمد إلى ما لا نهاية بالاستناد إلى العنف وحده. ولقد سبق لتاليران أن قال «أنه من الممكن فعل كل شيء بواسطة الحراب، ولكن من غير الممكن الجلوس فوقها». وكل سيطرة لحساب الأقلية تكون منظمة اجتماعية على نحو يركز **الطبقة السائدة وينحّي القدرة على العمل الموحد وبالتالي يحطم تنظيم الطبقات المضطهدة ويفتّها ويعثرها**. ويجب ألا يغيب عن أنظارنا أن الغالية الساحقة من السكان في ظل هيمنة الأقلية، أي هيمنة البورجوازية الحديثة، لا تنتهي إلى أي من الطبقات الحاسمة في الصراع الظبيقي، لا إلى البروليتاريا ولا إلى البورجوازية، وأن المهمة الاجتماعية للديمقراطية الحالمة، المهمة المنسجمة مع مصالح البورجوازية الظبيقيّة، هي وبالتالي ضمان قيادة البورجوازية وتوجيهها لتلك الفئات الوسطية (وكذلك، بالطبع، تحطيم التنظيم الإيديولوجي للبروليتاريا. فكلما تقادم العهد بالديمقراطية في بلد من البلدان، وكلما تطورت تطويراً صافياً خالصاً ازدادت أهمية تحطيم التنظيم الإيديولوجي ذاك، وهذا ما تمكن ملاحظته في إنكلترا وأميركا). ويدعي أن الديمقراطية السياسية هي أيضاً نقطة الذروة في نظام اجتماعي تمثل عناصره الأخرى فيما يلي: الانفصال الإيديولوجي بين الاقتصاد والسياسة، إنشاء جهاز دولة بيروقراطي يوجد مصلحة مادية ومعنوية لقسم كبير من البورجوازية الصغيرة في تأبيد الدولة وتخليدها، نظام الأحزاب البورجوازية، الصحافة، المدرسة، الدين، الخ. والهدف المشترك لجميع هذه العناصر، من خلال هذا التوزيع الوعي بهذا القدر أو ذاك للمهام، هو الحيلولة دون ولادة أيديولوجيا **مستقلة** في صفوف الطبقات المضطهدة من السكان، إيديولوجياً تعبر عن المصالح الذاتية المستقلة لهذه الطبقات. هدفها هو أن تربط بالدولة المجردة المترتبة على عرشها فوق الطبقات أعضاء هذه الطبقات بوصفهم ذرات منعزلة، أفراداً مواطنين، الخ. وهدفها أخيراً **تحطيم تنظيم هذه الطبقات** حيث أنها طبقات، وتحولها إلى مجرد بيادق لا حول لها ولا قوة، بيادق يسهل على البورجوازية تحريكها كيّفما شاءت.

إن تفهم دور المجالس (مجالس العمال والفلاحين والجنود) بوصفها قوة دولة البروليتاريا يعني **محاولة البروليتاريا** بوصفها طبقة قائدة للثورة أن تناضل وتقاوم بعكس تيار صبرورة تحطيم التنظيم تلك. فعليها قبل كل شيء أن تؤسس نفسها بنفسها في طبقة. وعليها أن تنظم بالتوالي مع هذا العناصر النشيطة الفعالة من الفئات الوسطية المتمردة غريزيا على هيمنة البورجوازية. وعليها في الوقت نفسه أن تحطم نفوذ البورجوازية المادي والإيديولوجي على سائر أجزاء تلك الطبقات. وقد أدرك بعض الانتهازيين الذين ينتمون بصفحه فكري أكبر من أمثال أوتو باور أن المعنى الاجتماعي لدكتاتورية البروليتاريا ولدكتاتورية المجالس يمكن جوهرا وأساسا فيما يلي: تحرير البورجوازية حذريا من إمكانية القيادة الإيديولوجية لتلك الطبقات ولا **سيما الفلاحين، وقصر تلك القيادة على البروليتاريا وحدها إبان المرحلة الانتقالية.** سحق البورجوازية، تدمير جهاز دولتها، إبادة صحتها، الخ، تلك هي الضرورات الحيوية للثورة البروليتاريا، لأن البورجوازية بعد هزائمها الأولى في الصراع على سلطة الدولة لا تتمكن البتة وبأي صورة من الصور عن محاولة استعادة دورها القيادي، الاقتصادي والسياسي على حد سواء، وتظل لحقيقة طويلة من الزمن طبقة في غاية القوة، حتى في سياق صراع طبقي مستمر في شروط مختلفة كل الاختلاف.

إن البروليتاريا إذن تتبع بمساعدة النظام السوفياتي كدولة نفس النضال الذي خاضته فيما مضى ضد سلطة الدولة الرأسمالية. ذلك أن عليها أن تبيد البورجوازية اقتصاديا، وتعزلها سياسيا، وتفت في عضدها وتبعثر قواها، وتتخضعها أيديولوجيا. ولكن عليها في الوقت نفسه أن تصبح بالنسبة إلى جميع الفئات الاجتماعية التي أخرجتها من دائرة نفوذ البورجوازية دليلاً ومرشدًا إلى الحرية. وبعبارة أخرى، لا يكفي أن تناضل البروليتاريا **موضوعياً من أجل مصالح** سائر الطبقات المستغلة، بل ينبغي أيضًا أن تستغل شكل الدولة الخاص بها في تجاوز لأبالية تلك الفئات وخمولها وفتنتها بواسطة التربية والتثقيف، وفي تربيتها على روح العمل والمساهمة المستقلة في حياة الدولة. ولعل أثيل مهام النظام السوفياتي أن يعيد ربط آنات الحياة الاجتماعية التي تمزقها الرأسمالية. وحيثما كان هذا التمزق ماثلاً في وعي الطبقات المضطهدة فحسب، توجب الأخذ بيدها لوعي الارتباط بين تلك الآنات. فالنظام السوفياتي على سبيل المثال يحقق وحدة لا تفصم بين الاقتصاد والسياسة. وبذلك يعيد ربط وجود البشر الراهن ومصالحهم اليومية المباشرة، الخ، بمسائل المجموع الأساسية. وعلى صعيد الواقع الموضوعي يشيد الوحدة من جديد حيث حققت مصالح البورجوازية الطبقية «تقسيم العمل»، وبالدرجة الأولى الوحدة بين «جهاز السيطرة» (الجيش، الشرطة، الإدارة، العدالة، الخ) وبين «الشعب». والفالحون والعمال المسلمين هم، بوصفهم قوة دولة، نتاج نضال السوفيات وشرط وجودها في آن واحد. فالنظام السوفياتي يسعى في كل مكان إلى ربط نشاط البشر بالمسائل العامة كمسائل الدولة والاقتصاد والثقافة الخ، مع حرصه في الوقت نفسه على لا تصبح إدارة جميع هذه المسائل امتيازاً لفئة مغلقة، منعزلة عن مجلمل حياة المجتمع، وباختصار بيرورقاطية. والنظام السوفياتي بوصفه دولة بروليتارية عامل حاسم في تنظيم البروليتاريا وتأسيسها في طبقة، وهذا في الوقت الذي يأخذ فيه بيد المجتمع لوعي العلاقة الواقعية بين جميع آنات الحياة الاجتماعية (وفي مرحلة لاحقة متقدمة عن طريق إعادة توحيد موضوعية للعناصر المنفصلة اليوم موضوعياً، وعلى سبيل المثال المدينة والريف، العمل الفكري واليدوي، الخ). وما كان مجرد طاقة وأمكانية لدى البروليتاريا في ظل المجتمع الرأسمالي يرتفع بالتالي إلى مستوى الوجود الفعلي، باعتبار أن **قدرة البروليتاريا الإنتحاجية الحقيقة لا يمكن أن تستيقظ إلا بعد الاستيلاء على سلطة الدولة.** ولكن ما ينطبق على البروليتاريا يسري أيضًا على سائر الفئات المضطهدة في المجتمع الرأسمالي البورجوازي. فهذه الفئات لا تستطيع هي الأخرى أن تتطور وتحيا إلا في هذا المجموع، مع فارق وحيد وهو أنها نظر مقودة في ظل نظام الدولة الجديد هذا أيضًا. ولكن إذا كانت لا تستطيع في ظل الرأسمالية، وبحكم كونها مقودة، أن تعي انحلالها الاقتصادي والاجتماعي الذاتي واستغلالها واضطهادها، فإنها تستطيع بالمقابل الآخر - وتحت القيادة البروليتارية - أن تحيا بعًا لمصالحها الذاتية وأن تمارس في الوقت نفسه كل ما فيها من قدرة وطاقة كانتا ملجمتين وميتورتين فيما مضى. إذن فتلك الفئات ليست مقودة إلا بمقدار ما أن البروليتاريا، الطبقة القائدة للثورة، تحدد إطار ذلك التطور واتجاهه.

إن ثمة فارقاً كبيراً من وجهة النظر المادية بين أن تكون الفئات الوسطية غير البروليتارية مقودة في ظل الدولة البروليتارية أو في إطار المجتمع البورجوازي. ولكن هناك علاوة على ذلك فارقاً شكلياً ومهوياً يتمثل في أن **الدولة البروليتارية هي أول طبقة في التاريخ تعرف جهازاً وبلا رباء بأنها دولة طبقية، جهازاً قمعاً، أداة لصراع الطبقات.** وهذه الصراحة المطلقة وهذه المكافحة الصريحة هما الشرط الذي لا بد منه لقيام تفاهم حقيقي بين البروليتاريا وسائر فئات المجتمع. وهذا علاوة على ذلك وفي المقام الأول أداة باللغة الأهمية لتربيـة البروليتاريا نفسها بنفسها. فقد ما كان من الضروري مطلق الضرورة أن تعي البروليتاريا أنها دخلت في مرحلة النضالات الثورية الخامسة وأن النضال في سبيل السلطة وفي سبيل قيادة المجتمع قد احتمـد، يصبح من الخطـر كل الخطـر أن تأخذـ هذه الحقيقة شكلاً متصلـاً مـتبـساً بـنتـيـجة انـعدـام التـمحـيس الجـلـيـ. إذـ أنـ منـ الأـخـطـارـ الـذاـهـمـةـ أنـ تـتـصـورـ البرـوـلـيـتـارـياـ،ـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ تـحرـرـ فـيـ نـفـسـهاـ مـنـ أيـديـولـوجـياـ النـزـعةـ الـمـسـالـمـةـ فـيـ صـرـاعـ الطـبـقـاتـ وـفـيـ الـوقـتـ الـذـيـ تـعـيـ فـيـ ضـرـورةـ العنـفـ وـدـلـالـتـهـ التـارـيـخـيـ،ـ أـنـ جـمـيعـ مشـكـلاتـ سـيـطـرـةـ البرـوـلـيـتـارـياـ يـجـبـ أـنـ تـسـوـىـ فـيـ جـمـيعـ الـطـرـوـفـ بـوـاسـطـةـ العنـفـ.ـ وـلـكـ مـاـ هـوـ أـخـطـرـ مـنـ ذـلـكـ أـيـضاـ هـوـ أـنـ يـخـطـرـ فـيـ بـالـ بـرـوـلـيـتـارـياـ أـنـ صـرـاعـ الطـبـقـاتـ يـنـتـهـيـ مـعـ الـاستـيـلـاءـ عـلـىـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ أـوـ أـنـ يـتـوقفـ عـلـىـ الـأـقـلـ.ـ فـعـلـىـ بـرـوـلـيـتـارـياـ أـنـ تـفـهـمـ أـنـ الـاستـيـلـاءـ عـلـىـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ لـيـسـ سـوـىـ مـرـحـلـةـ فـيـ ذـلـكـ الـصـرـاعـ.ـ وـعـلـىـ هـذـاـ فـإـنـ الـصـرـاعـ بـعـدـ الـاستـيـلـاءـ عـلـىـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ يـزـدـادـ حـدـدـ وـضـرـاوـرـ،ـ وـلـيـسـ فـيـ وـسـعـ أـحـدـ

البنة أن يزعم أن ميزان القوى قد رجحت كفته بشكل فوري وحاسم لصالح البروليتاريا. ولقد كان لينين يردد بلا تعب أو نصب أن البورجوازية تظل أقوى الطبقات حتى بداية الجمهورية السوفياتية، وحتى بعد مصادرة ملكيتها اقتصادياً وفرض الاضطهاد السياسي عليها. ولكن ميزان القوى يتعدى بمقدار ما تفوق البروليتاريا **سلاح قوي** جديد من أسلحة نضالها الطبقي: **الدولة**. وصحّح أن مجرد الاستيلاء على سلطة الدولة لا يؤدي فوراً وبصورة ميكانيكية إلى إبراز قيمة ذلك السلاح والى تحقيق قدرته على شل البورجوازية وعزلها وإيادتها، والى اكتساب تأييدسائر فئات المجتمع وتنفيتها لتمكينها من المساهمة في دولة العمال والفلاحين، والى تنظيم البروليتاريا نفسها لتحويلها إلى طبقة قيادية حقاً وفعلاً، وصحّح أيضاً أن الدولة لا تنطوي بالحتم والضرورة كوسيلة للنضال انطلاقاً من واقعة الاستيلاء على السلطة وحدها. ولكن لا ينبغي أن ننسى لحظة واحدة أن قيمة الدولة كسلاح من أسلحة البروليتاريا منوطـة بما ستفعله البروليتاريا بها وبقدرتها على تنفيذ مشيـتها تلك.

إن آنية الثورة تترجم بالنسبة إلى البروليتاريا في آنية مشكلة الدولة. وهذا ما يطرح في الوقت نفسه مشكلة الاشتراكية بالذات التي بعد أن كانت منظوراً بعيداً، هدفاً نهائياً، تصبح بالنسبة إلى البروليتاريا مسألة راهنة مباشرة. وأمكانية تحقيق الاشتراكية في مستقبل قريب ملموس هي بدورها علاقة جدلية، وقد تعرض البروليتاريا نفسها لأجسم الأخطار وأوهـاها إذا أولـت تأويلاً ميكانيكياً وطوبـانياً إمكانية تحقيق الاشتراكية الوشكـيـك على أنها الاشتراكـيـة وقد تحققـت فعلاً بمـجرد الاستـيلـاء على السـلـطة (مـصـادرـ الرـأسـمـالـيـنـ وـالـتأـمـيـمـاتـ وـالتـشـرـيـكـ الخـ). وقد حلـلـ مـارـكـسـ بـنـفـاذـ بـصـيرـةـ خـارـقـةـ الـاـنتـقالـ منـ الرـأسـمـالـيـةـ إـلـىـ الاـشـتـرـاكـيـةـ وأـشـارـ إـلـىـ مـخـتـلـفـ أـشـكـالـ الـبـنـىـ الـبـورـجـواـزـيـةـ الـتـيـ لـاـ سـبـيلـ إـلـىـ تـصـفـيـتـهاـ تـدـريـجـياـ إـلـاـ مـنـ خـلـالـ تـطـوـلـ النـفـسـ. وقد رـسـمـ لـينـينـ بـأـكـبـرـ قـدـرـ مـمـكـنـ مـنـ الـوضـوحـ الـخـطـ الفـاـصـلـ عـنـ الطـوـبـيـاتـ عـنـدـمـاـ قـالـ: «ـمـاـ مـنـ شـيـعـيـ، عـلـىـ مـاـ أـعـتـقـدـ، قدـ مـارـىـ فـيـ أـنـ تـعـبـرـ جـمـهـورـيـةـ السـوـفـيـاتـ الـاشـتـرـاكـيـةـ يـعـنـيـ تـصـمـيمـ الـقـوـةـ السـوـفـيـاتـيـةـ عـلـىـ تـحـقـيقـ الـاـنتـقالـ إـلـىـ الاـشـتـرـاكـيـةـ وـلـاـ يـعـنـيـ الـبـنـةـ اـعـتـبـارـ الشـرـوـطـ الـاـقـتـصـادـيـةـ الـقـائـمـةـ اـشـتـرـاكـيـةـ». فأـنـيةـ الثـورـةـ تـعـنـيـ إذـنـ أـنـ الاـشـتـرـاكـيـةـ مـسـأـلـةـ مـطـرـوـحةـ عـلـىـ جـدـولـ أـعـمـالـ الـطـبـقـةـ الـعـامـلـةـ، وـلـكـنـ فـقـطـ مـنـ حـيـثـ أـنـ يـتـوـجـبـ عـلـيـهـاـ أـنـ تـنـاضـلـ يـوـمـيـاـ فـيـ سـبـيلـ تـحـقـيقـ شـرـوـطـ الـاـشـتـرـاكـيـةـ وـمـنـ حـيـثـ أـنـ بـعـضـ الـتـدـابـيرـ الـعـيـنـيـةـ الـيـوـمـيـةـ هـيـ فـيـ حـقـيقـتـهاـ خـطـىـ عـيـنـيـةـ مـلـمـوـسـةـ فـيـ سـبـيلـ تـحـقـيقـهاـ.

وحوـلـ هـذـهـ النـقـطـةـ عـلـىـ وجـهـ التـحدـيدـ تمـيـطـ الـانتـهـازـيـةـ اللـنـامـ فـيـ نـقـدـهاـ لـلـعـلـاقـاتـ بـيـنـ السـوـفـيـاتـ الـاشـتـرـاكـيـةـ عـنـ اـنـتـقـالـهاـ بـصـفـةـ نـهـائـيـةـ إـلـىـ مـعـسـكـرـ الـبـورـجـواـزـيـةـ، إـلـىـ مـعـسـكـرـ أـعـدـاءـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ الـطـبـقـيـنـ. فالـانتـهـازـيـةـ مـنـ جـهـةـ أـولـىـ تـعـتـبـرـ جـمـعـ الـتـنـازـلـاتـ الـطـاـهـرـيـةـ الـتـيـ تـقـدـمـهاـ الـبـورـجـواـزـيـةـ الـمـذـعـورـةـ وـالـمـخـتـلـةـ الـتـنـظـيمـ مـؤـقـتاـ لـلـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ لـتـسـتـعـيـدـهـاـ عـنـدـمـاـ تـسـنـحـ أـولـ فـرـصـةـ، تـعـتـرـهـاـ خـطـىـ فـعـلـيـةـ نـحـوـ الـاشـتـرـاكـيـةـ (لـنـصـ نـصـ أـعـيـنـاـ مـثـالـ «ـلـجـانـ التـشـرـيـكـ»ـ الـتـيـ أـنـشـيـتـ فـيـ عـامـيـ 1918ـ 1919ـ فـيـ أـلـمـانـيـاـ وـالـنـمـسـاـ، وـالـتـيـ تـمـتـ تـصـفـيـتـهـاـ مـنـذـ أـمـدـ بـعـدـ). وـهـيـ مـنـ الـجـهـةـ الـأـخـرىـ تـسـخـرـ مـنـ الـجـمـهـورـيـةـ السـوـفـيـاتـيـةـ لـأـنـهـاـ لـاـ تـحـقـقـ الـاشـتـرـاكـيـةـ فـورـاـ وـفـعـلـاـ، وـلـأـنـهـاـ لـاـ تـقـومـ، مـنـ خـلـالـ الـأـشـكـالـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـةـ وـتـحـتـ الـقـيـادـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـةـ، إـلـاـ بـثـورـةـ (ـرـوـسـيـاـ جـمـهـورـيـةـ الـفـلـاحـيـنـ)، (ـبـعـثـ الرـأـسـمـالـيـةـ)، (ـالـخـ). وـفـيـ كـلـتـاـ الـحـالـتـيـنـ يـتـضـحـ أـنـ الـعـدـوـ الـحـقـيـقـيـ الـذـيـ تـتـوـجـبـ مـكـافـحـتـهـ فـيـ نـظـرـ الـأـنـتـهـازـيـيـنـ مـنـ كـلـ الـأـشـكـالـ وـالـأـنـوـاعـ هـوـ عـلـىـ وـجـهـ تـحـدـيدـ الـثـورـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـةـ بـالـذـاتـ. وـهـذـاـ لـيـسـ فـيـ الـوـاقـعـ سـوـىـ النـطـورـ الـمـنـطـقـيـ الـمـحـتـوـمـ لـلـمـوـقـفـ الـذـيـ وـقـوـهـ مـنـ الـحـربـ الـإـمـبـرـيـالـيـةـ. وـلـكـنـ لـينـينـ يـتـابـعـ هـوـ الـأـخـرـ نـقـدـهـ الـذـيـ بـدـأـ قـبـلـ الـحـربـ وـأـنـاءـهـ عـنـدـمـاـ يـعـتـبـرـ الـأـنـتـهـازـيـيـنـ فـيـ الـجـمـهـورـيـةـ السـوـفـيـاتـيـةـ أـعـدـاءـ فـعـلـيـنـ لـلـطـبـقـةـ الـعـامـلـةـ. فـالـأـنـتـهـازـيـةـ تـشـكـلـ هـيـ أـيـضـاـ جـزـءـاـ مـنـ الـبـورـجـواـزـيـةـ الـتـيـ يـنـبـغـيـ تـدـمـيرـ جـهـازـهـ الـمـادـيـ وـالـمـعـنـوـيـ وـالـتـيـ يـتـوـجـبـ عـلـىـ دـكـنـاتـوـرـيـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـةـ أـنـ تـحـطـمـ تـنـظـيمـ بـنـيـتـهـاـ حـتـىـ لـاـ يـمـتـنـ نـفـوذـهـاـ إـلـىـ الـفـنـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـتـيـ يـقـضـيـ عـلـيـهـاـ وـضـعـهاـ الـطـبـقـيـ الـمـوـضـوعـيـ بـعـدـ الـاـسـتـقـرـارـ سـيـاسـيـاـ. وـآـنـيةـ الـاـشـتـرـاكـيـةـ تـجـعـلـ هـذـاـ الـصـرـاعـ أـشـدـ حـدـةـ بـمـاـ لـاـ يـقـاسـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ فـيـ أـيـامـ النـقـاشـ حـولـ أـطـرـوـحـاتـ بـرـنـشـتـايـنـ عـلـىـ سـبـيلـ الـمـثالـ. وـالـدـوـلـةـ الـتـيـ هـيـ سـلـاحـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ بـهـدـفـ الـكـفـاحـ مـنـ أـجـلـ الـاـشـتـرـاكـيـةـ وـقـعـمـ الـبـورـجـواـزـيـةـ هـيـ فـيـ الـوـقـتـ نـفـسـهـ سـلـاحـ لـاستـئـصـالـ الـخـطـرـ الـأـنـتـهـازـيـ الـمـهـدـدـ لـنـضـالـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ الـطـبـقـيـ الـذـيـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـسـتـمـرـ بـقـدـرـ مـتـمـاـلـ مـنـ الـعـنـفـ. فـيـ ظـلـ دـكـنـاتـوـرـيـةـ الـطـبـقـةـ الـعـامـلـةـ.

6 – السياسة الواقعية الثورية

تـسـتـولـيـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ عـلـىـ السـلـطـةـ وـتـشـيـدـ دـكـنـاتـوـرـيـتـهاـ الـثـورـيـةـ، وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ تـحـقـيقـ الـاـشـتـرـاكـيـةـ أـصـبـحـ مـسـأـلـةـ مـطـرـوـحةـ عـلـىـ جـدـولـ الـأـعـمـالـ. وـهـذـهـ مـشـكـلـةـ تـوـاجـهـهاـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ بـأـقـلـ درـجـةـ مـنـ الـاـسـتـعـدادـ الـإـيـدـيـوـلـوـجـيـ لأنـ سـيـاسـةـ الـاـشـتـرـاكـيـةـ-الـدـيمـوـقـراـطـيـةـ «ـالـوـاقـعـيـةـ»ـ الـتـيـ عـالـجـتـ دـوـمـاـ الـمـسـائـلـ الـيـوـمـيـةـ عـلـىـ أـنـهـاـ مـجـرـدـ مـسـائـلـ يومـيـةـ لـاـ صـلـةـ لـهـاـ بـالـتـطـورـ الـإـجـمـالـيـ ولاـ عـلـاقـةـ لـهـاـ بـالـمـشـكـلـاتـ الـنـهـائـيـةـ لـصـرـاعـ الـطـبـقـاتـ، وـبـالـتـالـيـ مـنـ غـيرـ أـنـ تـتـجاـوزـ الـبـنـةـ بـصـورـةـ فـعـلـيـةـ وـعـيـنـيـةـ أـفـقـ المـجـمـعـ الـبـورـجـواـزـيـ، أـقـولـ أـنـ سـيـاسـةـ الـاـشـتـرـاكـيـةـ-الـدـيمـوـقـراـطـيـةـ تـلـكـ الـتـيـ تـصـفـ نـفـسـهـاـ بـأـنـهـاـ «ـوـاقـعـيـةـ»ـ قدـ أـضـفـتـ مـنـ جـدـيدـ طـابـعاـ طـوبـانـيـاـ عـلـىـ الـاـشـتـرـاكـيـةـ فـيـ نـظـرـ الـعـمـالـ.

والانفصال بين الهدف النهائي والحركة لا يزيف الرؤية الصحيحة للهدف النهائي وللحركة فحسب⁽⁹⁾، ولكنه يحول في الوقت نفسه الهدف النهائي إلى هدف طبائني وينخذ هذا التراجع نحو الطبائنية أشكالاً بالغة التنوع. وهو يتترجم قبل كل شيء في أن الاشتراكية لا تبدو في نظر الطبائين صيرة وتطوراً بل حالة كائنة. وبعبارة أخرى، إنهم لا يحللون مشكلات الاشتراكية عندما يطروحونها إلا من زاوية المسائل الاقتصادية والثقافية الخ، أو من زاوية الحلول التقنية المناسبة التي تكون ممكناً عندما تكون الاشتراكية قد دخلت في مرحلة التحقيق العملي. ولكنهم لا يثيرون من قريب أو بعيد مسألة معرفة ما إذا كان مثل ذاك الوضع ممكناً اجتماعياً، ولا مسألة معرفة كيفية الوصول إليه، ولا مسألة معرفة ما إذا كان مثل هذا الوضع متاحاً اجتماعياً، ولا مسألة العلاقات الطبقية والأسئلة الاقتصادية التي تواجهها البروليتاريا في اللحظة التاريخية التي تتصدّى فيها لمهمة تحقيق الاشتراكية (تماماً كما أن فورييه قد درس في حينه بتفصيل بصيرة كيفية تنظيم المشاعرة المجتمعية ولكن من غير أن يتمكن من تبيان الطريق العيني إلى تحقيقها). إذن فالذهب الانتهازي، أي إلغاء **الجدل في منهج الفكر الاشتراكي، يسلخ الاشتراكية عن صيرورة الصراع الطبقي**. وهذه فإن أولئك الذين انتقلت إليهم عدو ذلك الفكر السامة مرمغموν بالضرورة على تصور مقدمات تحقيق الاشتراكية ومشكلات هذا التحقيق من خلال منظور مشوه. ويتمادي هذا الموقف في الخطأ إلى درجة ينسحب معها هذا الأخير لا على فكر الانتهازيين الذين تظل الاشتراكية بالنسبة إليهم هدفاً بعيداً دوماً فحسب، بل يقود أيضاً ثوريين صادقين إلى تصورات مغلوبة. وقد استطاع هؤلاء الآخرين، وهم يشكلون القسم الأكبر من يسار الأommie الثانية، أن يروا الصيرورة الثورية ذاتها، والنضال في سبيل السلطة كصيرة، من خلال ارتباطهما بالمسائل العملية اليومية، ولكنهم عجزوا عن أن يدمجوا أيضاً بهذا المجموع وضع البروليتاريا بعد الاستيلاء على السلطة والمشكلات العينية الناجمة عن هذا الوضع. ومن هنا فقد أصبحوا هنا أيضاً طبائين.

إن الواقعية المرمودة المدهشة التي عالج بها لينين جميع مشكلات الاشتراكية إبان دكتاتورية البروليتاريا والتي أكسيته إعجاب خصومة البروجوازيين الصغار بالذات ليست إذن سوى **التطبيق المنطقى للماركسية**، لنمط التفكير التاريخي-الجدلي على مشكلات الاشتراكية التي أمست مشكلات راهنة. ونادرًا ما يشير لينين في كتاباته وأقواله - شأنه شأن ماركس في مؤلفاته - إلى الاشتراكية كحقيقة واقعة، ولكنـه كثيراً ما يتكلـم بالمقابل عن **الخطوات** التي يمكن أن تفضـي إلى تحقيقـها. ذلك أنه يستحيل علينا أن نتخيل عينـنا الاشتراكية في تفاصـيلها كـحقيقة واقـعة. ومـهما تـكن أهمـية المـعرفـة الصـحيـحة نـظـريـاً لـبنـية الاشتراكـية الأساسيةـ، فإنـ هذه المـعرفـة تستـمد معـناـها الحـقـيقـيـ منـ حيثـ أنهاـ تـشـكـلـ مـعيـارـاً لـقيـاسـ صـحةـ الـخطـواتـ التيـ نـخـطـوـهاـ باـتجـاهـ الاـشتـراكـيةـ. والمـعرفـةـ العـيـنيةـ باـلاـشتـراكـيةـ ذاتـهاـ، نـتيـجةـ النـضـالـ المـخـاضـ فيـ سـبـيلـ الوـصـولـ إـلـيـهاـ، وـهـيـ لاـ تـسـلـسـ قـيـادـهـ لـنـاـ إـلـاـ فـيـ النـضـالـ فـيـ سـبـيلـ الاـشتـراكـيةـ وـعـنـ طـرـيقـهـ. وكلـ مـحاـولةـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ الاـشتـراكـيةـ عنـ غـيرـ طـرـيقـ عـلـاقـاتـ هـذـهـ الـعـرـفـةـ الـجـدـلـيـ الـمـتـابـلـةـ مـعـ الـمـشـكـلـاتـ الـبـوـمـيـةـ لـصـرـاعـ الـطـبـقـاتـ تـجـعـلـ مـنـ تـلـكـ الـمـعـرـفـةـ نـوـعاـ مـنـ الـمـيـافـيـرقـاـ، مـنـ الـطـبـائـيـةـ، شـيـناـ مـاـ تـأـمـلـاـ وـغـيرـ عـمـلـيـ الـبـنـةـ.

إن واقعية لينين، سياسته الواقعية هي إذن بمثابة **تصفيـةـ نـهـائـيةـ لـكـلـ نـزـعـةـ طـبـائـيـةـ**، إنـجازـ عـيـنيـ لـفـحـوىـ بـرـنـامـجـ مـارـكـسـ. وـعـبـارـةـ أـخـرىـ، إنـهاـ النـظـرـيةـ وـقـدـ اـسـتـحـالـتـ عـمـلـيـةـ، نـظـرـيـةـ الـمـارـكـسـيـةـ. وـقـدـ فعلـ لـينـينـ بـمـشـكـلـةـ الاـشتـراكـيةـ نفسـ ماـ فعلـهـ بـمـشـكـلـةـ الـدـوـلـةـ. فـقدـ حـرـرـهـ مـنـ العـرـلـةـ الـمـيـافـيـرقـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـتـعـثـرـ فـيـهاـ حتـىـ ذـلـكـ الـحـيـنـ، وـمـنـ التـبـرـزـ الصـغـيرـ، ليـضـعـهـ فـيـ سـيـاقـ مـجـمـلـ مشـكـلـاتـ الـصـرـاعـ طـبـقـيـ. وـقـدـ اـخـتـبرـ وـجـربـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـحـيـاةـ الـعـيـنيةـ لـلـتـطـورـ التـارـيـخـيـ الـإـشـارـاتـ الـعـبـقـرـيـةـ الـتـيـ تـرـكـهـ مـارـكـسـ لـنـاـ فـيـ «ـنـقـدـ بـرـنـامـجـ غـوـتاـ»ـ وـفـيـ غـيرـهـ مـنـ الـمـؤـلـفـاتـ، وـأـضـفـيـ عـلـيـهـاـ مـنـ خـلـالـ التـمـاسـ مـعـ الـوـاقـعـ التـارـيـخـيـ صـفـةـ أـكـثـرـ عـيـنيةـ وـأـكـتـمـالـاـ مـاـ كـانـ يـمـكـنـ فـعـلـهـ فـيـ عـصـرـ مـارـكـسـ، وـحتـىـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ عـبـقـرـيـةـ كـعـبـقـرـيـةـ مـارـكـسـ.

وعلىـ هـذـاـ فـإـنـ مشـكـلـاتـ الـبـنـيةـ الـاـشتـراكـيةـ هـيـ مشـكـلـاتـ الـبـنـيةـ الـاـقـتـصـادـيـةـ وـالـعـلـاقـاتـ الـطـبـقـيـةـ لـحـظـةـ استـيـلـاءـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ عـلـىـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ. وهي مشكلات ناجمة بصورة مباشرة عن الشروط التي تشيد فيها البروليتاريا دكتاتوريتها. ومن هنا فإنه من غير الممكن فهمها ولا حلها إلا في إطار هذه المشكلات. ولكنـها تحتـويـ لـنـفـسـ السـبـبـ دـوـماـ. عـلـىـ عـنـصـرـ مـبـدـئـيـ جـدـيدـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ هـذـاـ الـوـضـعـ وـبـالـنـسـبـةـ إـلـىـ سـائـرـ الـأـوـضـاعـ السـابـقـةـ. وـصـحـيـحـ أـنـ جـمـيعـ عـنـاصـرـ هـذـهـ الـمـشـكـلـاتـ نـاجـمـةـ فـيـ الـوـاقـعـ عـنـ الـمـاضـيـ، وـلـكـنـ عـلـاقـتـهاـ بـالـمـحـافظـةـ عـلـىـ سـيـطـرـةـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاـ وـبـتـعـزـيزـ هـذـهـ الـسـيـطـرـةـ وـبـتـعـيـمـهـاـ تـولـدـ مشـكـلـاتـ جـديـدةـ مـاـ كـانـ مـنـ الـمـمـكـنـ أـنـ تـوـجـدـ لـدـىـ مـارـكـسـ وـلـاـ فـيـ سـائـرـ النـظـرـيـاتـ السـالـفـةـ، وـلـاـ يـمـكـنـ فـهـمـهـاـ وـحلـهـاـ إـلـاـ فـيـ إـطـارـ هـذـاـ الـوـضـعـ الـمـسـتـجـدـ.

والحق إن سياسة لينين الواقعية، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أسسها ومظاهرها الإجمالي، تتكشف عن أنها ذروة الجدل المادي. فهي من جهة أولى تحليل للوضع القائم، للبنية الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية، تحليل يتميز بالإضافة إلى ماركسيته بالبساطة والتغلغل العميق في الواقع العيني. وهي من الجهة الثانية وهي لجميع المظاهر الجديدة في هذا الوضع، وهي صافٍ لا يشوّهه أي ادعاء نظري وأي رغبة طبائية. ولكنـ هذاـ الـمـطـلـبـ الـبـيـسـطـ ظـاهـرـيـاـ وـنـاجـمـ فـعلـيـاـ عـنـ مـاهـيـةـ الـجـدـلـ المـادـيـ. الـذـيـ هـوـ فـيـ الـحـقـيقـةـ نـظـرـيـةـ للـتـارـيخـ. لـيـسـ سـهـلـ التـلـبـيـةـ. فـعـادـاتـ تـفـكـيرـ الرـأـسـمـالـيـةـ قدـ رـسـخـتـ لـدـىـ الـبـشـرـ، وـلـاـ سـيـماـ الـعـلـمـاءـ مـنـهـمـ، الـمـيلـ إـلـىـ عـدـمـ تـفـسـيرـ الـطـاـهـرـةـ الـجـديـدةـ إـلـاـ مـنـ وجـهـةـ نـظرـ الـمـاضـيـ وـحـدـهـ، وـالـىـ عـدـمـ تـفـسـيرـ وـاقـعـ الـيـوـمـ إـلـاـ انـطـلـاقـاـ مـنـ

(9) كان برنشتاين يقول: الحركة هي كل شيء، والهدف النهائي لا شيء. وكان يقصد بالحركة النضالات اليومية والإصلاحات الجزئية المنتزعـةـ دونـهـ اـرـتـبـاطـ بالـهـدـفـ النـهـائـيـ: الاـشتـراكـيةـ. «ـالـعـرـبـ»ـ

واقع الأمس (وما طوبائية الثوريين إلا محاولة للتملص من هذا الميل بأسهل الطرق وللانتقاد دفعه واحدة إلى عالم جديد كل الجدة بدلاً من اعتماد الجدل لفهم الظهور الجدل للجديد انطلاقاً من القديم). ولقد كان لينين يقول: «لهذا فإن الكثيرين قد ضللتهم رأسمالية الدولة. وحتى نقي أنفسنا من الضلال ينبغي أن نفك دوماً بهذا الشيء الأساسي وهو أن رأسمالية الدولة في شكلها الذي نعرفها به الآن لم يجر تحليلها في أي نظرية وفي أي أدب، وهذا لأن جميع المفاهيم المرتبطة باسمها تحيلنا إلى قوة البورجوازية في المجتمع الرأسمالي. ونحن لدينا دولة رأسمالية خرجت عن طريق الرأسمالية ولما تدخل بعد في الطريق الجديد».

ولكن ما السياق العيني والواقعي الذي شرعت فيه البروليتاريا الروسية بتحقيق الاشتراكية بعد أن فرضت نفسها كطبقة سائدة مسيطرة؟ لقد كانت تواجه قبل كل شيء رأسمالية احتكارية متطرفة نسبياً ومتداعية على إثر الحرب العالمية، وهذا في بلد زراعي متاخر لم تستطع طبقته الفلاحية أن تحرر نفسها من أغلال المخلفات الإقطاعية إلا بالتعاضد مع الثورة البروليتارية. كما كانت تواجه، خارج روسيا، عالماً رأسمالياً معادياً يحذق بها من كل جانب وبعقد العزم على الانقضاض بكل الوسائل التي يملكتها على الدولة العمالية والفالحية الجديدة. ولقد كان ذلك العالم يملك ما فيه الكفاية من القوة لسحق هذه الدولة عسكرياً أو اقتصادياً لو لم يكن منقسماً عميق الانقسام على نفسه بحكم تفاقم حدة التناقضات الرأسمالية الإمبريالية، الأمر الذي كان يتبح للبروليتاريا فرضاً متتجدد باستمرار لاستغلال تلك المزاحمات والمنافسات لصالحها (يدعى أنها لم تنشر هنا إلا بشكل أولي وعام للغاية إلى هاتين المجموعتين من المشكلات الأساسية، ولكن حجم هذا الكتاب لا يسمح لنا بأن نتطرق إليهما بمزيد من التفصيل).

إن الأساس المادي للاشتراكية **بصفتها شكلاً اقتصادياً أعلى** وبديلاً عن الرأسمالية لا يمكن أن تكون سوى إعادة تنظيم وتطوير متقدم للصناعة وتكييف هذه الصناعة مع حاجات الطبقات الكادحة وتحويلها باتجاه حياة أصح وأكمل (إلغاء التعارض بين المدينة والريف والتعارض بين العمل الفكري والعمل اليدوي الآخر). وحالة شروط الاشتراكية المادية تلك تشتهر أيضاً بامكانيات وطرق تحقيق الاشتراكية. وقد حدد لينين بوضوح منذ عام 1917، وقبل الاستيلاء على سلطة الدولة، الوضع الاقتصادي وما يتربّ عليه من مهام بالنسبة إلى البروليتاريا: «إن جدل التاريخ يمكن على وجه التحديد فيما يلي: فالحرب بتعجيلها بتحول الرأسمالية الاحتكارية إلى رأسمالية دولة احتكارية تقرب الإنسانية من الاشتراكية. إن الحرب الإمبريالية هي عشية الثورة الاشتراكية. وليس ذلك لأن الحرب تبعث على التمرد البروليتاري بحكم أهوالها وفظاعاتها - إذ لا يمكن لأي تمرد مهما يكن أن يخلق الاشتراكية إذا لم تكن الشروط الاقتصادية ناضجة - بل أيضاً لأن رأسمالية الدولة الاحتكارية هي تهيئة مادية مدهشة للاشتراكية، باب المدخل إلى الاشتراكية، وأنها على المستوى التاريخي المرحلة التي لا يعود فيها وبين المرحلة التي تليها، أي الاشتراكية، مراحل انتقالية أخرى». وعلى هذا فإن «الاشتراكية ليست شيئاً آخر سوى احتكار الدولة الرأسمالي **المنظم لصالح الشعب** بأسره، وهي من هذه الزاوية لا تعود احتكاراً رأسمالياً». ويضيف في مستهل عام 1918: «إن رأسمالية الدولة تعني خطوة إلى الأمام في الشروط الراهنة لجمهوريتنا السوفياتية. وإذا ما أتيح لنا أن نشيد رأسمالية الدولة في بلادنا في مدى ستة أشهر على سبيل المثال، فإننا سنكون قد حققنا نجاحاً كبيراً وأوجدنا ضمانة لا يرقى إليها شك في أن الاشتراكية ستتوطد عندنا نهائياً في غضون عام من الزمن وستصبح منيعة لا تقهـر».

ولقد كان لا بدّ من الاستشهاد بهذه المقاطع من كتابات لينين بحذافيرها لن Dustin الأسطورة الاشتراكية-«الديمقراطية والبورجوازية الواسعة الانتشار التي تزعم أن لينين بعد فشل المحاولة «الماركسية المذهبية» لبناء الشيوعية «دفعـة واحدة» قد تراجع عن الخط المبدئي لسياسته وقبل بنوع من التسوية أو الحل الوسط بداعـف من ذكائه «الواقعي النـزعـة». بـيد أن الحقيقة التاريخية تختلف كل الاختلاف. فشيوعية الحرب المزعومة التي وصفها لينين بأنـها «تدبـير مؤـقت مشـروع بالـحرب الأـهـلـية والـدمـار» والتي «لم تـكن سيـاستـة منـاسبـة معـ المـهـامـ الـاقـتصـادـيـ للـبرـولـيتـارـياـ» وـ«ـماـ كانـ منـ المـمـكـنـ أنـ تـكـونـ كـذـلـكـ»، كانتـ فيـ الواقعـ انـحرـافـاـ عنـ الخطـ الذـيـ كانـ يـحـبـ أنـ يـسـيرـ عـلـيـهـ التـطـوـرـ نحوـ الاـشـتـراكـيةـ تـبعـاـ لـتـبـيـؤـاتـ لـينـينـ النـظـرـيةـ. وـصـحـحـ أـنـ شـيـوعـيـةـ الـحـربـ كـانـ تـدبـيرـاـ مشـروعـاـ بـالـحـربـ الـأـهـلـيةـ فـيـ الدـاخـلـ وـفـيـ الـخـارـجـ، وـبـالـتـالـيـ حـتـمـيـاـ، وـفـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ مـؤـقاـنـاـ. وـلـكـنـ لـينـينـ كانـ يـرىـ أنـ الـبرـولـيتـارـياـ سـتـعـرـضـ نـفـسـهـاـ إـلـىـ أـدـهـيـ الـفـوـاجـعـ إـذـاـ مـاـ تـجـاهـلـتـ طـبـاعـ شـيـوعـيـةـ الـحـربـ هـذـاـ وـاعـتـرـتـهـاـ. كـمـاـ فـعـلـعـدـيـدـ مـنـ الـثـورـيـنـ الصـادـقـيـنـ مـمـنـ لـمـ يـكـونـواـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ لـينـينـ نـظـرـيـاــ. خـطـوةـ حـقـيقـيـةـ تـمـ خـطـوهـاـ بـاتـجـاهـ الـاشـتـراكـةـ.

إذـنـ لـيـسـ الـمـسـأـلةـ مـسـأـلةـ درـجـةـ الطـابـعـ الـاشـتـراكـيـ الـذـيـ تـكـشـفـ عـنـ الـأـسـكـالـ الـخـارـجـيـةـ للـحـيـاةـ الـاـقـتصـادـيـ، وإنـماـ هـيـ، وـبـصـورـةـ مـانـعـةـ، مـسـأـلةـ درـجـةـ سـيـطـرـةـ الـبرـولـيتـارـياـ الفـعلـيـةـ عـلـىـ ذـكـ الجـهاـزـ الـاـقـتصـادـيـ الـذـيـ اـسـتـولـتـ عـلـيـهـ مـعـ اـسـتـيلـائـهـ عـلـىـ السـلـطـةـ وـالـذـيـ هـوـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ أـسـاسـ وـجـودـهـاـ الـاجـتمـاعـيـ، أـقـصـدـ الـصـنـاعـةـ الـكـبـيرـةـ. وـيـدـعـيـ أـنـ سـيـطـرـةـ الـبرـولـيتـارـياـ عـلـىـ ذـكـ الجـهاـزـ يـجـبـ أـنـ تـخـدـمـ فـعـلاـ أـهـدـافـهـ الـطـبـيقـيـةـ. وـمـهـمـاـ تـبـدـلـ سـيـاقـ هـذـهـ الـاهـدـافـ الـطـبـيقـيـةـ وـمـهـمـاـ تـبـدـلـ بـالـتـالـيـ وـسـائـلـ تـحـقـيقـهـاـ، فـإـنـ أـسـاسـهـ الـعـامـ يـجـبـ أـنـ يـقـيـ هوـ، وـأـعـنـيـ بـهـ مـتـابـعـةـ صـرـاعـ الـطـبـيقـاتـ بـمـسـاعـدـةـ الـفـئـاتـ الـاحـتـمـاعـيـةـ وـغـيرـهـ الـمـسـتـقـرـةـ (وـلـاـ سـيـماـ الـفـلـاحـيـنـ) عـلـىـ الجـهـةـ الـحـاسـمـةـ، أـيـ ضدـ الـبـورـجـواـزـيـةـ. وـمـنـ وـجـهـةـ النـظـرـ هـذـهـ يـجـبـ أـلـاـ تـنـسـيـ أـبـداـ أـنـ الـبرـولـيتـارـياـ تـظـلـ. وـسـتـظـلـ لـحـقـبةـ طـوـيـلـةـ مـنـ الـزـمـنـ. أـوـهـنـ الـطـبـيقـاتـ وـأـضـعـفـهـاـ بـالـرـغـمـ مـنـ اـنـتـصـارـهـاـ الـأـولـيـ، وـهـذـاـ إـلـىـ أـنـ تـنـتـصـرـ الـثـورـةـ عـلـىـ الصـعـيدـ الـعـالـمـيـ. إـذـنـ فـمـنـ الـوـاجـبـ أـنـ يـسـيرـ نـصـالـهـ الـاـقـتصـادـيـ فـيـ اـتـجـاهـيـنـ رـئـيـسـيـيـنـ: أـنـ تـحـولـ مـنـ جـهـةـ أـلـىـ بـأـسـرعـ مـاـ يـمـكـنـ وـبـأـكـمـلـ ماـ يـمـكـنـ دونـ تـدـمـيرـ الـحـربـ وـالـحـربـ الـأـهـلـيـةـ

للصناعة الكبيرة، لأن البروليتاريا سيكون مآلها الهلاك كطبقة بدون الصناعة الكبيرة، وأن تسوى من الجهة الثانية جميع مشكلات الإنتاج والتوزيع بصورة تبقى معها الطبقة الفلاحية، التي أصبحت حليفة البروليتاريا بنتيجة الحل الثوري للمسألة الزراعية، وفيه لهذا التحالف بفضل أوسع تلبية ممكنة لمطالبها المادية. ووسائل تحقيق هذه الأهداف تختلف تبعاً لاختلاف الظروف. ولكن التحقيق المتدرج لهذه الأهداف هو الطريق الوحيد الممكّن لاستمرار سيطرة البروليتاريا وللحفاظ على مقدمات الاشتراكية.

إذن فالصراع الطيفي بين البورجوازية والبروليتاريا يستمر بعف متماثل على جهة الاقتصاد الداخلي. والمشروع الصغير، الذي لا مراء في أن من الطوبائية الرغبة في إلغائه و«تشريكه» في تلك المرحلة، «ينتج بلا انقطاع الرأسمالية والبورجوازية، يومياً وبلا كلّ، بصورة بدائية وبأعداد كثيفة». والمهم هنا هو لم من ستكون الغلبة في هذا السباق؟ اللبورجوازية التي تعيّد ترميم صفوتها وحشد قواها من جديد أم للصناعة الكبيرة الدولة والخاصة لرقابة البروليتاريا. وعلى البروليتاريا أن تجاذب بهذا التنافس حتى لا تجاذب على المدى الطويل بانفكاك التحالف مع الفلاحين الصغار بنتيجة اختناق المشاريع الصغيرة والتجارة الخ. ثم إن البورجوازية تدخل أيضاً المبارزة والصراع في شكل رأسمال أجنبى وأمتيازات للشركات الأجنبية الخ. وهنا يأخذ الموقف صفة المفارقة لأن تلك الحركة - مهما تكن نياتها - يمكن أن تصبح حليفة البروليتاريا في مظهرها الاقتصادي الموضوعي إذ تساهُم في تعزيز القوة الاقتصادية للصناعة الكبيرة. وهكذا يولد «تحالف ضد عناصر المشروع الصغير». ولكن يتوجب بالمقابل مكافحة الميل الطبيعي للرأسمال الأجنبي إلى تحويل الدولة البروليتارية تدريجياً إلى مستعمرة رأسمالية، ومكافحته بقوة (ترخيص الاستثمارات الأجنبية، احتكار التجارة الخارجية، الخ).

ومن غير الممكّن أن نرسم حتى الخطوط العريضة لسياسة لينين الاقتصادية بمساعدة هذه الملاحظات القليلة وحدها. وما نوهنا به حتى الآن يجب ألا يتعير أكثر من مثل تبسيطه يهدف إلى توضيح **مبادئ سياسة لينين وأسسها النظرية**. وهذه المبادئ تتلخص فيما يلي: الحفاظ بأي ثمن على سيطرة البروليتاريا في عالم يعج بالأعداء السافرين أو المستربين والخلفاء المترددين. وإن كان المبدأ الأساسي لسياسة لينين قبل الاستيلاء على السلطة هو أن يكتشف من خلال فوضى الميل الاحتماعية للرأسمالية الأفلة وتصالبها اللحظات القادرة على أن تجعل من البروليتاريا الطبقة السائدة والحاكمة في المجتمع إذا ما أحسنت هذه الأخيرة استغلالها، فإن لينين قد تمكّن طيلة حياته بهذا المبدأ بلا خور ولا تنازل. ولكنه تمكّن بهذا المبدأ، بدون أي تنازل أيضاً، بوصفه **مبدأ حدلبا**. وهذا بمعنى أن «مبدأ الجدل الماركسي يمكن في أن جمعي حدود الطبيعة والتاريخ مشروطة ومحركة في آن واحد، وفي أنه لا توجد ظاهرة واحدة لا يمكن أن تتحول في بعض الشروط إلى نقيضها». ولهذا فإن الجدل «يقتضي دراسة كاملة للظاهرة الاجتماعية المعنية من خلال تطورها، كما يستلزم إرجاع الآثار الخارجية والظاهرة إلى القوى الفاعلة الأساسية والتي تطور القوى المنتجة والتي صرّاع الطبقات». وعظمة لينين كمفكر جدلي تجلّى في أنه فهم على أصفى ما يمكن الفهم المبادئ الأساسية للجدل وتتطور القوى المنتجة وصراع الطبقات بدلالة ماهيتها العميقية، بصورة عينية، بلا ظنون مسبقة مجردة، ومن غير أن تشوش الطواهر السطحية وضوح رؤيته، كما تجلّى في أنه ربط دوماً مجمل الطواهر المدرّسة بأساسها النهائي: **العمل العيني للبشر العينيين (أي المشرفين بانتظامهم الطيفي) على أساس مصالحهم الطبقية الحقيقة**. وإنما اطلاقاً من هذا المبدأ تندفع وتنهار خرافية «لينين=رجل السياسة الواقعية» و«سيد المساومات والتسويات»، ويكتشف الوجه الحقيقي للينين بوصفه المتابع المنطقى لجدل ماركس.

وبنفي قيل كل شيء تجريد مفهوم التسوية من كل معنى يجعل منها أسلوباً حادقاً، حيلة ماهرة، خدعة بارعة. ولقد كان لينين يقول: «إن الناس الذين يفهمون السياسة على أنها حذلقات بهلوانية تقارب أحياناً الخداع والمخاتلة لا بد أن يلقوها من جانبنا أعنف الرفض. فالطبقات لا يمكن أن تخدع». إذن فالتسوية لا يعني لدى لينين إلا ما يلي: **تقييم الخطوط الواقعية لتطور الطبقات**، (وكذلك تطور الأمم وعلى سبيل المثال الشعوب المضطهدة) التي تسير في بعض الظروف، وللحقبة من الزمن، وبقصد بعض المسائل، في طريق مواز لمصالح البروليتاريا الحيوية، والتي يمكن بالتالي استغلال حركتها لصالح الطرفين معاً.

بيد أن التسويات يمكن أن تكون أيضاً شكلاً من أشكال النضال الطيفي ضد العدو اللدود الأول للطبقة العاملة وأعني به البورجوازية (ومن قبيل ذلك، على سبيل المثال، علاقات روسيا السوفياتية مع الدول الإمبريالية). ولا يحجم نظريو الانتهائية عن التشكيك بهذا الشكل الخاص من التسويات ليرفعوا من قدر لينين - أو ليحطوا منه - بوصفه «سياسيَا واقعياً غير دوغماتي»، وليدروا الرماد في العيون في الوقت نفسه بقصد التسويات التي يتمرغون فيها. وقد ألحنا فيما تقدم على خطل الحجة الأولى. وبنفي لنا إذا أردنا تقييم الحجة الثانية أن نأخذ بعين الاعتبار - كما هو واجب بالنسبة إلى أي مسألة من مسائل الجدل - الكلية التي تشكل المحيط العيني لكل تسوية. وهذا تجلّى فوراً حقيقة أن تسوية لينين وتسوية الانتهائيةين تنطلقان من **مقدمات متعارضة مطلقاً التعارض**. فالكتيك الاشتراكي-الديموقراطي يقوم أسواء كان معيناً أم لا شعورياً على أساس الابتعاد عن الثورة الحقيقية. فهو يفترض أن الشروط الموضوعية للثورة الاجتماعية لما تكتمل بعد، وأن البروليتاريا لما تنضج بعد أيديولوجيا للقيام بالثورة، وأن الحزب والنقيابات ما تزال أضعف مما ينبغي، الخ. ولهذا السبب يتوجب على الحزب أن يعقد تسويات مع البورجوازية. وكلما اكتملت الشروط الأولية الذاتية والموضوعية للثورة الاجتماعية، أمكن للبروليتاريا أن تحقق أهدافها الطيفية بصورة «أكثر نقاط». وبذلك تأخذ

التسوية على الصعيد العملي، وفي غالب الأحيان، ظاهر نزعة «جذرية» متصلة وتشبّث «طهراني» بالمبادئ بالنسبة إلى «الأهداف النهائية» (بديهي أننا لا نستطيع في هذا السياق أن نأخذ بعين الاعتبار تلك النظريات الاشتراكية-الديمقراطية التي تحسّب نفسها، بصورة من الصور، ملزمة بالتمسّك بنظرية الصراع الطبقي. وبالمقابل فإن التسوية لا تعود تسوية البتة بالنسبة إلى سائر النظريات الانتهازية بل تصبح التعاون الطبيعي بين شتى الفئات الاجتماعية-المهنية لصالح المجتمع).

أما بالنسبة إلى لينين فإن التسوية هي على النقيض من ذلك **نتيجة معاشرة ومنطقية لأنية الثورة**. وإذا كان الطابع الأساسي للعصر كله هو آنية الثورة، وإذا كان من الممكن أن يحدث هذا التطور في كل لحظة (في أي قطر خاص كما على الصعيد العالمي) من دون أن تكون هناك إمكانية لتحديد هذه اللحظة مسبقاً أو للتنبؤ بها، وإذا كان الطابع الثوري لعصرنا كله يتجلّى في الانحلال التدريجي للمجتمع الورجوازي (والنتيجة الضرورية لهذا هي أن الميل الأكثر تناقضاً تتفاوت وتتدخل بصورة دائمة)، فإن هذا كله يعني بالبداية أن البروليتاريا لا تستطيع أن تبدأ ثورتها وتجهزها في «أنسب» الشروط التي تختارها هي، وأنه ينبغي عليها وبالتالي أن تستغل، مهما تنوّعت الظروف، كل ميل قابل لأن يمهد الطريق، ولو بصورة مؤقتة، أمام الثورة، أو قابل على الأقل لأن يضعف أداءها. وقد أثبتنا فيما تقدم بعض الاستشهادات من كتابات لينين التي تميّط اللثام عن مدى ابتعاده عن الأوهام - حتى قبل الاستيلاء على السلطة - فيما يتعلق بسرعة بناء الاشتراكية ووتيرة تحقيقها. والعبارات التالية، المستخلصة من أحد مقالاته الأخيرة المكتوبة بعد مرحلة «التسويات»، تؤكّد بما لا يدع مجالاً للشك أيضاً أن ذلك التوقع لم يكن يعني بالنسبة إليه إرجاء النشاط الثوري: «لقد كتب نابليون: نزح أنفسنا ثم نرى. والترجمة الحرة لهذا القول تعني: علينا أولاً أن نخوض المعركة جدياً ثم نرى النتيجة بعد ذلك. وهكذا خضنا المعركة الجدية الأولى في تشرين الأول 1917، ثم ظهرت لنا بعض التفاصيل بوضوح (بديهي أنها لا تعود أن تكون أكثر من تفاصيل من وجهة نظر التاريخ العالمي) مثل صلح بريست-ليتوافسك أو السياسة الاقتصادية الجديدة». إذن فالنظريّة والتكتيكيّة اللينينيّان عن التسوية ليسا سوى سُوى النتيجة العينية والمنطقية للتصور التاريقي الماركسي-الجدلي الذي يقول بأن البشر يصنعون تاريخهم بأنفسهم ولكن ليس في الظروف التي يختارونها بأنفسهم. نتيجة للتصور الذي ينص على أن التاريخ ينتج الجديد دوماً، وعلى أن الآلات التاريخية، التي هي بمثابة تلاقٍ وتصالب مؤقت للميول، لا تكرر نفسها أبداً في شكل واحد، وعلى أن بعض الميول التي يمكن استغلالها اليوم لصالح الثورة يمكن أن تتحقّق بها غالباً أفحـض الضـرـرـ والعـكـسـ. وهـكـذاـ فإنـ ماـ أـرـادـ لـيـنـينـ اـقـتـراـحـ عـلـىـ الـمـنـاسـفـةـ وـالـاشـتـراكـيـيـنـ-ـالـثـورـيـيـنـ فـيـ 1ـ أـيلـولـ 1917ـ كانـ تـسـوـيـةـ عـمـلاـ مشـتـركـاـ، لـصـالـحـ الشـعـارـ الـبـلـشـفـيـ الـقـدـيمـ: «ـكـلـ السـلـطـةـ لـلـسـوـفـيـيـاتـ». وـلـكـنـ لـيـنـينـ كـتـبـ مـنـذـ 17ـ أـيلـولـ: «ـالـحقـ أـنـ قـدـ فـاتـ الـأـوـانـ لـاقـتـراـحـ تـسـوـيـةـ. وـلـعـلـ الـأـيـامـ الـقـلـائلـ الـتـيـ كـانـ فـيـهاـ التـنـوـرـ السـلـمـيـ مـاـ يـزـالـ مـمـكـنـاـ قـدـ وـلـتـ إـلـىـ الـأـبـدـ. وـبـالـفـعـلـ، إـنـ كـلـ الدـلـائـلـ تـشـيرـ إـلـىـ أـنـهـ قـدـ وـلـتـ». وـلـسـنـاـ بـحـاجـةـ إـلـىـ أـنـ نـذـكـرـ أـنـ لـيـنـينـ قـدـ طـبـقـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ فـيـ بـرـيـسـتـ-ـلـيـتوـافـسـكـ وـبـصـدـ منـحـ الـأـمـيـازـ لـلـشـرـكـاتـ الـأـجـنبـيـةـ الـخـ.

وفي النضال النظري الذي خاضه لينين ضد الجناح اليساري من حزبه بالذات (بعد الثورة الأولى وبعد صلح بريست-ليتوافسك في الإطار الروسي وفي عامي 1920-1921 في الإطار الأوروبي) يتبيّن لنا بمزيد من الوضوح مدى اعتماد لينين في نظريته عن التسوية على تصوّره الأساسي عن آنية الثورة. ففي جميع تلك المساجلات **كان شعار الجذريين اليساريين رفض كل تسوية لأسباب مبدئية**. وحال لينين ضدهم يهدف في جوهره إلى أن يقيم البرهان على أن رفض كل تسوية يعني تجنب النصالات الحاسمة وعلى أن هذا التصور يدلّ على الانهزامية تجاه الثورة. ذلك أن الوضع الثوري الحقيقي - وهذا تكمّن بالنسبة إلى لينين سمة عصرنا المميزة - يتترجم قبل كل شيء في أنه لا يمكن أن يوجد مجال للصراع الطبقي من غير أن توجد معه إمكانيات ثورية (أو مضادة للثورة). وعلى هذا فإن الثوري الحقيقي، الثوري الذي يعلم أننا نعيش في عصر ثوري ويستخلص من ذلك النتائج العملية، يجب أن ينظر دوماً إلى كلية الواقع التاريقي-الاجتماعي من وجهة النظر تلك، وأن يأخذ بعين الاعتبار، وهذا لصالح الثورة، كل حدث، أكبر أم صغر، أعظم أم هان، أكان عادياً أم خارقاً للعادة، بدلالة أهميته بالنسبة إلى الثورة وبدلالة هذه الأهمية وحدها. وعندما يصف لينين أحيااناً الجذرية اليسارية بأنها انتهازية يسارية، فإنه يدلّ على فهمه العميق السديد لطبيعة **المنظورات التاريχية المشتركة** بين هذين التيارين المتعارضين في الأساس أشد التعارض. ذلك أن المنظور المشترك بين هذين التيارين الذين يرفض أولهما كل تسوية ويرى ثالثهما في التسوية مبدأ «السياسة الواقعية» التي يعارض بها «التشبّث المتشنج بالمبادئ الدوغمائية»، هو التشاوُم بـصـدـ آـنـيـةـ الثـورـةـ وـوـشـكـانـهـاـ. وـالـطـرـيـقـ الـتـيـ يـنـبـذـ بـهـاـ لـيـنـينـ كـلـ الـاتـجـاهـيـنـ مـعـاـ اـنـطـلـاقـاـ مـنـ الـمـبـدـأـ نـفـسـهـ تـظـهـرـ أـنـ التـسـوـيـةـ لـدـيـ لـيـنـينـ وـلـدـيـ الـأـنـتـهـاـزـيـنـ تـشـيرـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ لـهـاـ اـسـمـاـ وـاحـدـاـ، إـلـىـ وـاقـعـ مـخـلـفـ كـلـ الـاخـتـلـافـ وـتـنـطـوـيـ عـلـىـ تـصـورـ مـخـتـلـفـ كـلـ الـاخـتـلـافـ لـدـيـ كـلـ الـطـرـفـيـنـ.

والتفهم الصحيح لما يعنيه لينين بالتسوية وللطريقة التي أسس بها نظرياً تكتيكي التسوية ليس شرطاً باللغ الأهمية لفهم منهجه فهما دقيقاً فحسب، بل يمثل أيضاً خطوة ذات مدى عملي بعيد الشأو. فالتسوية ليست ممكّنة في نظر لينين إلا من خلال **التفاعل الجذلي مع التمسك الجازم بمبادئ الماركسية ومنهجها**. وهـكـذاـ تـظـهـرـ باـسـتـمرـارـ فـيـ قـلـبـ التـسـوـيـةـ بـالـذـاـتـ الـرـاـقـعـيـةـ الـتـيـ سـتـفـضـيـ إـلـىـ تـحـقـيقـ نـظـرـيـةـ الـمـارـكـسـيـةـ. وـكـمـاـ أـنـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ وـهـذـاـ التـكـتـيـكـ يـتـمـيـزـ صـارـمـ التـمـيـزـ عـنـ التـشـبـّثـ المـتـشـنجـ وـالـمـيكـانـيـكـيـ بـالـمـبـدـئـيـ «ـالـصـافـيـةـ». كـذـلـكـ فـإـنـهـماـ يـتـعـدـانـ بـالـصـورـيـةـ عـنـ كـلـ «ـسـيـاسـةـ وـاقـعـيـةـ»ـ تـبـسيـطـيـةـ لـاـ تـعـتمـدـ الـمـبـدـئـيـةـ. وـبـعـارـةـ أـخـرـىـ لـاـ يـكـفـيـ فـيـ نـظـرـ لـيـنـينـ أـنـ يـجـرـيـ تـعـرـفـ وـتـقـيـيمـ الـمـوـقـفـ الـعـيـنـيـ الـذـيـ يـتـوجـبـ الـعـمـلـ فـيـ سـيـاقـهـ.

وعلاقات القوة العينية التي تحدد الترسو، وميل التطور الضروري للحركة العاملة الشارط لاتجاهها، ولكنه يقدر أن من **الأخطار العملية الداهمة** التي تهدد الحركة العاملة أن يبقى مثل ذلك التفهُم الصحيح للواقع خارج إطار المعرفة العامة الصحيحة **للسيرة التأريخية بمحملها**. وهكذا استصوب السلوك العملي للشيوعيين الألمان تجاه «الحكومة العمالية» التي طُرِح موضوع تكتيُّعها بعد إحباط انقلاب «كاب»، ولكنه وجه لاذع لومه إلى استناد هذا التكتيُّك الصحيح في ذاته إلى منظور تاريحي مغلوط نظرياً لأنَّه مبني على عدد لا حصر له من الأوهام الديموقراطية.

إن الاتحاد الجدلِي الصحيح بين العام والخاص، وتعرف العام (أي الميل الأساسي للتاريخ) من خلال الخاص (من خلال الوضع الخاص) وبالتالي كنتيجة لتجسد النظرية تجسداً عيناً، يشكلان الفكرة الأساسية في نظرية الترسويات تلك. وأولئك الذين لا يرون في لينين سوى «سياسيٍّ وافعيٍّ» ذكيٌّ، بل عقريٌّ أحياناً، هم في الواقع أحوجهم بـ«ماهية» منهجه. ولكن الأجهل منهم أيضاً هم أولئك الذين يصرون لأنفسهم أنهم واجدون في قرارات لينين صيغاً سحرية قابلة للتطبيق في كل مكان ومفاتيح لحل عملي صحيح لكل مشكلة. والحق أنَّ لينين لم يضع قط «قواعد عامة» قابلة للتطبيق على عدد من الحالات. وـ«حقائقه» هي نتيجة التحليل العيني للموقف العيني على ضوء التصور الجدلِي للتاريخ. وإذا ما «عممنا» بصورة ميكانيكية مبادئه وقراراته، لم نصل إلا إلى كاريكاتور اللينينية، أي إلى صيغة مبتذلة من اللينينية. وهذا ما كان شأن الشيوعيين المحربيين الذين سعوا في صيف 1919 إلى تقليد صلح بريست-ليتوافسك بحذايَّرِه في ردهم على مذكرة كليمونصوا دونما اعتبار لتبدل طبيعة الموقف. وهذا ما حذر منه ماركس عندما أتحى باللائمة الشديدة على لاسال: «إن المنهج الجدلِي يطبق تطبيقاً خاطئاً. فهيفيل لم يطلق قط اسم الجدل على إدراج مجموعة من الحالات تحت مبدأ عام».

وإذا كان من الواجب أن تؤخذ بعين الاعتبار جميع الميول الماثلة في كل موقف عيني، فهذا لا يعني أن من الواجب أيضاً اعتبارها على قدر واحد من الأهمية في القرارات. بل على النقيض من ذلك! **فلكل موقف مشكلة مركبة**، والقرار الواجب اتخاذُه في صدده يتعلق لا بسائر المسائل المصاحبة له فحسب بل أيضاً بالتطور اللاحق لجميع الميول الاجتماعية في المستقبل. ولقد كان لينين يقول: « علينا أن نعرف كيف نمسك في كل لحظة بتلك الحلقة المحددة من السلسلة التي ينبغي أن تتشبث بها بكل قوانا حتى نستطيع السيطرة على السلسلة كلها وحتى نهيئ الانتقال إلى الحلقة التالية. وفي هذه الحال لا يكون تعاقب الحلقات وشكلها وتسلاسلها واختلافها في سلسلة الأحداث التاريخية بسيطاً ومجرداً من المعنى والدلالة كما هو شأن السلاسل العاديَّة التي يصعبُها الحداد». ولا يمكن أن نتوصل إلى تحديد تلك اللحظة من الحياة الاجتماعية التي تكتسب مثل تلك الأهمية إلا انطلاقاً من الجدل الماركسي، من التحليل العيني للموقف العيني. والخطيب الهادي الذي يتيح لنا أن نتوصل إليها هو الرؤية الثورية للمجتمع **بصفته كليّة في سبيلها إلى التطور**. ذلك أنَّ الحلقة الحاسمة بصورة مؤقتة في السلسلة لا تكتسب أهميتها إلا من خلال ارتباطها بالكل، والإمساك بتلك الحلقة ضروري لأنَّه السبيل الوحيد للإمساك بالكل. وبينَه لينين بصورة عينية وخاصة بهذه المشكلة في إحدى مقالاته الأخيرة التي يتحدث فيها عن التعاونيات ويشير إلى أن «العديد من العناصر التي كانت تبدو خيالية أو حتى ذات رائحة رومانسية كريهة في أحلام المتعاونين القدماء قد أصبحت حقيقة واقعة لا سبيل إلى نكرانها». وهو يقول: «الحق أنه لم يتبق علينا سوى شيء واحد يجب أن نفعله، وهو أن نرفع المستوى الحضاري لسكنانا بحيث يفهمون كل الفوائد التي ستنجم عن مساهمة شخصية في التعاون ويندفعون في اتجاه مثل هذا التعاون. ليس علينا أن نفعل سوى هذا. ولسنا بحاجة اليوم إلى مناورات أخرى للانتقال إلى الاشتراكية. ولكن حتى يتحقق هذا، فلا مفر من انقلاب شامل في التطور الثقافي لمجمل الجماهير الشعبية». ولا يسعنا هنا مع الأسف أن نحلل المقال كله بتفاصيله، مع أنَّ مثل هذا التحليل - وتحليل أي تعليمات تكتيكيَّة للينين - كفيَّل بإظهار كيفية احتواء كل حلقة من حلقات السلسلة على الكل، وكفيَّل أيضاً بأنْ يبيَّن أنَّ المعيار الدائم للسياسة الماركسيَّة الحقيقية هو استنباط تلك الآيات من الصيغة العامة وتركيز الحد الأقصى من الطاقة عليها، وهي الآيات التي تميَّز اللثام، في اللحظة المحددة، في المرحلة المحددة، ومن خلال كلٍّيتها العملية الواقعية تحت اللمس، عن علاقتها بالكل المتمثل في الآية الراهنة والمشكلة المركزية للتطور اللاحق، وبالتالي بالنسبة إلى المستقبل. وعني عن البيان أن الإمساك بقوَّة بالحلقة التالية من السلسلة، بالحلقة الحاسمة، لا يعني أن تلك اللحظة يجب أن تفصل عن الكل وأن اللحظات الأخرى سيكون مصيرها الإهمال بسيئها، وإنما يعني أن **جميع اللحظات والآيات الأخرى يجب أن توضع موضع صلة بالمشكلة المركزية وأن تفهم وتحل على هذا الأساس**. ومن هنا فإنَّ التصور اللينيني لا يضعف الارتباط بين جميع المشكلات فيما بينها، بل على العكس يدعمه ويعززه ويجسده عيناً.

إن تلك الآيات هي نتاج الصيغة التأريخية، نتاج التطور الموضوعي للقوى المنتجة. وإنها لمسألة تخصُّ البروليتاريا أن تكون هذه الأخيرة قادرة أو غير قادرة على فهم تلك الآيات وعلى الإمساك بها وبالتالي على التأثير على تطورها اللاحق. والأطروحة الماركسيَّة الأساسية، التي أكدناها أكثر من مرة والتي تنص على أن البشر يصنعون تاريخهم بأنفسهم، تكتسب في عصر الثورة وبعد الاستيلاء على السلطة أهمية متعاظمة باستمرار حتى ولو لم يكن هناك مناص - وهذا بديهي - من توكيُّد التكلمة الجدلية لتلك الأطروحة باعتبارها شرط صدقها وصحتها، أي توكيُّد أهمية الظروف التي ليست هي من اختيار البشر. وهذا يعني عملياً أن دور **الحزب في الثورة** - فكرة لينين الأساسية في عهد شبابه - **أكبر وأهم أيضاً** في عصر الانتقال إلى الاشتراكية منه في المرحلة التمهيدية. ذلك أنه كلما تعاظم النفوذ الفعال للبروليتاريا من خلال تحديدها

لمجرى التاريخ، كان لقراراتها تأثير أعظم على قدرها الذاتي - بالمعنى المستحب كما بالمعنى المرذول الكلمة - وعلى قدر الإنسانية قاطبة، وتعاظمت بالتالي الأهمية الحيوية للحفاظ على النقاء الكامل للبوصلة الوحيدة القادرة على توحّيه **وعي البروليتاريا الطبيعي** عبر أمواج ذلك الخضم المتلاطم من الظواهر وعلى توكيه وتسلیحه بمزيد من الوضوح دوماً ليكون الدليل الأوحد في ساح الكفاح. وهذه الأهمية للدور الفعال تاريخياً للحزب البروليتاري تشكل فكرة أساسية في نظرية - وبالتالي في سياسة - لينين الذي لم يكُن عن إبرازها وتوكيدها وعن الإلحاح على أهميتها في القرارات العملية. وهكذا قال في المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيافي في معرض هجومه على خصوم تطور رأسمالية الدولة: «إن رأسمالية الدولة هي تلك الرأسمالية التي سيكون في مقدورنا أن نضيق عليها الخناق وأن نحد من نفوذها. ورأسمالية الدولة هذه مرتبطة بالدولة، والدولة هي العمال، الجناح الأكثر تقدماً من العمال، الطليعة. هذا ما نحن كائنو... وما ستكونه رأسمالية الدولة تلك رهن بنا إذن».

ولهذا فإن كل مرحلة من مراحل التطور نحو الاشتراكية هي دوماً، وبصورة حاسمة، مشكلة من مشكلات الحزب الداخلية أيضاً. إنها إعادة توجيه للقوى وملاءمة لأجهزة الحزب مع مهمته الجديدة: التأثير على تطور المجتمع في الاتجاه الذي يميله التحليل الصحيح والدقيق للكلية من وجهة نظر البروليتاريا الطبقية. وهذا هو السبب الذي من أجله يحتل الحزب المكانة العليا في هرم القوى المحددة لطبيعة الدولة السوفياتية. ولهذا السبب أيضاً يكتب الحزب - باعتبار أن الثورة لا يمكن أن يكتب لها الطغرى النهائي إلا على الصعيد العالمي وباعتبار أن البروليتاريا لا تستطيع أن تؤسس نفسها في طبقة بالمعنى الكامل للكلمة إلا بصفتها بروليتاريا عالمية - أقول لهذا السبب يشكل الحزب شعبة تابعة للأممية الشيوعية، جهاز الثورة البروليتارية الأعلى. وغنى عن البيان أن التشنج الميكانيكي النزعة الممizer لفکر جميع الانتهازيين والذليين البورجوازيين الصغار سيرى دوماً في مثل تلك الارتباطات تناقضات مستعصية لا حل لها. وهو لن يفهم في حال من الأحوال لماذا تمسك البلاشفة بعد «عودتهم إلى الرأسمالية» ببنية الحزب القديمة وبدكتوريته القديمة «المناوئة للديمقراطية». وإن يفهم لم لا تخلى الأممية الشيوعية ولو للحظة واحدة عن الثورة العالمية، ولم تحاول تنظيم هذه الثورة وتهيئتها بكل الوسائل التي تملّكتها في الوقت الذي تسعى فيه دولة البروليتاريا الروسية إلى عقد الصلح مع الدول الإمبريالية لدفعها إلى المساهمة بقدر الإمكان في بناء روسيا اقتصادياً. كما أنه لن يفهم لماذا يتثبت الحزب بلا كلل وبكل تصميم بطابعه الداخلي المتنين الصلب ولماذا يكرس كل ما يملك من وسائل لتعزيز بيته الإيديولوجية والتنظيمية في الوقت الذي تسهر فيه السياسة الاقتصادية للجمهورية السوفياتية بقلق على عدم انفصام التحالف مع الفلاحين الفقراء - ذلك التحالف الذي تدين له بوجودها - وفي الوقت الذي تحول فيه الجمهورية السوفياتية في أنظار الانتهازيين إلى دولة فلاحية في سبيلها إلى فقدان طابعها البروليتاري الخ. والحق أن التشنج الميكانيكي النزعة للفکر غير الجدلية عاجز عن أن يفهم أن تلك التناقضات هي تناقضات الواقع بالذات، تناقضات موضوعية للعصر الحاضر، وأن سياسة الحزب الشيوعي السوفيافي البلشفي، سياسة لينين غير متناقضة إلا بمقدار ما تبحث وتجد الأجوة الصحيحة جديلاً على التناقضات الموضوعية لوجودها الاجتماعي بالذات.

وهكذا فإن تحليل سياسة لينين يرجعنا دوماً إلى أساس المنهج الجدلية. ونشاط لينين طوال حياته هو التطبيق المتماسك لجدل ماركس على الظواهير الدائمة التبدل والدائمة التوليد لما هو جديـد، وذلك في عصر انتقالي حافـل. ولكن لما لم يكن الجدل مجرد نظرية جاهـزة قابلـة للتطبيق ميكانيـكيـاً على جميع ظاهرـاتـ الـحـيـاةـ، ولـما لم يكن لهـ فيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ مـنـ وـجـودـ كـنـطـرـيـةـ . إـلاـ فـيـ ذـلـكـ التـطـبـيقـ وـمـنـ خـلـالـهـ، فـقـدـ أصبحـ المـنهـجـ الجـدلـيـ بـعـدـ مـارـكـسـ لـيـنـينـ أـكـثـرـ تـطـوـرـاـ وـأـوـسـعـ نـطـاقـاـ وـأـشـمـلـ وـأـكـمـلـ نـظـرـيـاـ مـنـ المـنهـجـ الجـدلـيـ المـورـوثـ عنـ مـارـكـسـ وـأـنـجـلـزـ.

إذن فمن المبرر تماماً الكلام عن **اللينينية كمرحلة جديدة** في تطور الجدل المادي. فلينين لم يرجع للمذهب الماركسي صفاءه ونقاوه بعد عشرات السنوات من التمييع والتشويه على يد الماركسيـةـ المـبـذـلةـ فحسبـ، بل تابـعـ أيضاـ تطويرـ المـنهـجـ بالـذـاتـ وـرـفـعـهـ إـلـىـ مـسـتـوـىـ أعلىـ منـ النـضـجـ والتـطـبـيقـ العـيـنيـ. وإذاـ كانـ منـ وـاجـبـ الشـيـوعـيـينـ أنـ يـتـابـعـواـ طـرـيـقـ لـيـنـينـ، فإـنـ عـمـلـهـ هـذـاـ لـنـ يـكـونـ مـثـمـراـ إـلـاـ إـذـاـ سـعـواـ إـلـىـ أـنـ يـكـونـ لـهـمـ إـزـاءـ لـيـنـينـ نـفـسـ المـوـقـفـ الـذـيـ كـانـ لـهـ إـزـاءـ مـارـكـسـ. وـمـاـ يـحـدـدـ شـكـلـ هـذـاـ المـوـقـفـ وـمـضـمـونـهـ هـوـ تـطـورـ المـجـتمـعـ والمـشـكـلـاتـ وـالـمـهـامـ الـتـيـ تـطـرـحـهاـ الصـيـرـورـةـ التـارـيـخـيةـ عـلـىـ المـارـكـسـيـةـ، كـماـ أـنـ مـاـ يـحـدـدـ تـجـاجـهـ هـوـ مـسـتـوـىـ الـوعـيـ الطـبـقـيـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـ دـاـخـلـ حـزـبـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـ القـائـدـ. وـالـلـيـنـينـيـةـ تـعـنـيـ أـنـ نـظـرـيـةـ المـادـيـةـ التـارـيـخـيةـ قدـ اـقـتـرـبتـ المـزـيدـ أـيـضاـ مـنـ نـضـالـاتـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـ الـيـوـمـيـةـ وـأـنـهاـ أـصـبـحـ أـكـثـرـ عـمـلـيـةـ أـيـضاـ مـاـ كـانـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـونـهـ فـيـ عـصـرـ مـارـكـسـ. وـعـلـىـ هـذـاـ إـنـ التـقـالـيدـ الـلـيـنـينـيـةـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـعـنـيـ إـلـاـ الحـفـاظـ . بلاـ تـزـيفـ وـلـاـ تـبـيـسـ . عـلـىـ وـظـيـفـةـ المـادـيـةـ التـارـيـخـيةـ الـحـيـةـ الـمـجـيـةـ، التـانـيـةـ الـمـنـمـيـةـ مـعـاـ. وـلـهـذاـ يـنـبـغـيـ . نـحـنـ نـكـرـ ذـلـكـ . أـنـ يـدـرـسـ الشـيـوعـيـونـ لـيـنـينـ كـمـاـ درـسـ لـيـنـينـ مـارـكـسـ. يـنـبـغـيـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـدـرـسـوهـ حتـىـ يـتـعـلـمـواـ كـيـفـ يـسـتـخـدـمـونـ المـنـهـجـ الجـدلـيـ، وـحتـىـ يـتـعـلـمـواـ كـيـفـ يـجـدـونـ الـخـاصـ فـيـ الـعـامـ وـالـعـامـ فـيـ الـخـاصـ اـنـطـلـاقـاـ مـنـ التـحـلـيلـ الـعـيـنيـ لـلـمـوـقـفـ الـعـيـنيـ، وـكـيـفـ يـجـدـونـ الـرـابـطـةـ الـتـيـ تـرـيـطـ مـاـ يـسـتـجـدـ فـيـ المـوـقـفـ بـصـيـرـورـةـ التـطـورـ السـابـقـ، وـكـيـفـ يـكـشـفـونـ الـجـدـيدـ المـتـوـلـدـ باـسـتـمـارـ اـنـطـلـاقـاـ مـنـ قـوـانـيـنـ التـطـورـ الـتـارـيـخـيـ، وـكـيـفـ يـكـشـفـونـ فـيـ الـكـلـ الـجزـءـ وـفـيـ الـجزـءـ الـكـلـ، وـلـحظـةـ الـعـملـ الـفـعـلـيـ فـيـ التـطـورـ الـصـرـوـرـيـ، وـفـيـ الـعـمـلـ ذاتـهـ اـرـتـيـاطـهـ بـضـرـورـةـ الصـيـرـورـةـ التـارـيـخـيـةـ. إـنـ الـلـيـنـينـيـةـ تـعـنـيـ مـسـتـوـىـ لـمـ يـسـقـ قـطـ اـرـتـفـاعـ إـلـهـ حتـىـ الـآنـ لـلـفـكـرـ الـعـيـنيـ الـمـتـنـافـيـ فـيـ طـبـعـتـهـ مـعـ الـدـوـغـمـاـتـيـةـ وـالـرـزـعـةـ الـمـيـكـانـيـكـيـةـ وـالـمـتـجـهـ كـلـيـاـ نـحـوـ الـعـمـلـ التـحـوـلـيـ أـيـ نـحـوـ الـمـارـكـسـيـةـ. وـوـاجـبـ الـلـيـنـينـيـنـ هـوـ الـحـفـاظـ عـلـىـ

هذا المكتسب. ولكن ليس من الممكن الحفاظ في الصيغة التاريجية إلا على ما يتتطور بصورة حية. وعلى هذا فإن **الحفاظ على هذا النحو على التقاليد الليبية** هو اليوم أبيل مهام كل مناضل ينظر بعين الجد إلى المنهج الجدلية بوصفه سلاح نضال البروليتاريا الطبقي.